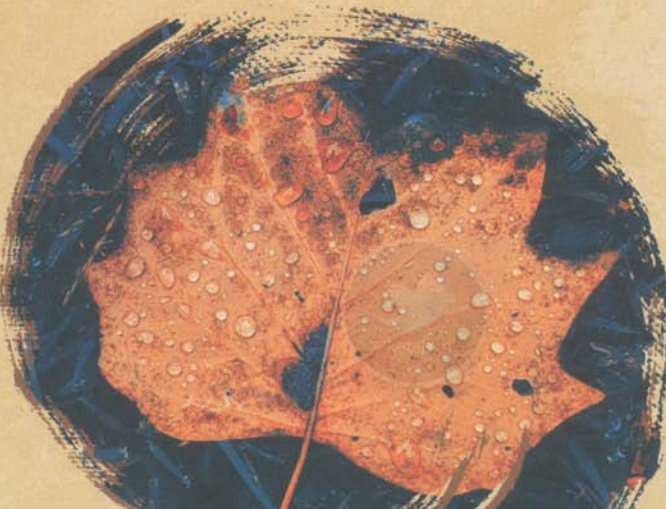
مذكرات

27.2.202

كوري تايلر

في معنى أن نموت



ترجمة

عبدالوهاب أبو زيد

فى معنى أن نموت

مذكرات

كوري تايلر

ترجمة: عبدالوهاب أبو زيد

في معنى أن نموت

مذكرات

كوري تايلر

هـذا الكتـاب صـادر عـن مشـروع «مـدّ» للترجمـة الـذي تقـوم عليـه دار أدب للنشـر والتوزيـع ضمـن مبـادرة إثـراء المحتـوى إحـدى مبـادرات مركـز الملـك عبـد العزيز الثقافي العالمي (إثراء)

هذه الترجمة هي الترجمة العربية عن الإنجليزية لكتاب:

DYING: A MEMOIR

By

Cory Taylor

تنشر هذه الترجمة عن النسخة الأصلية للكتاب:

الآراء الواردة في الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

ⓒ دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

تايلر، كوري
في معنى أن نموت. / كوري تايلر؛ عبد الوهاب أبو زيد.- الرياض، ١٤٤٢هـ
٢٠٥ ص؛ المقاس ١٤ × ٢١ سم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-٦٩١٥-٧

١- الموت - فلسفة أ. أبو زيد، عبد الوهاب (مترجم) ب. العنوان
ديوي ١٢٨,٥ ١٤٤٢/٥٣٧٤

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٥٣٧٤
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-٦٩١٥-٧

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ = ٢٠٢١م

info@adab.com adab.com @adab

المملكة العربية السعودية-الرياض

قالوا عن هذا الكتاب:

«هذه شهادة أخيرة قوية ومؤثرة وواضحة، وهي في الآن ذاته نداء بليغ من أجل حرية المرء في الموت، واستحضارٌ لما تتسم به الحياة من مباهج وأحزان ومباغتة وهشاشة. تتساءل تايلر عما إذا كانت قد عثرتْ على «النغمة المناسبة» لقصتها. وسيكتشف قراؤها أنها قد عثرتْ عليها بالفعل. إنه إسهام رائع في حوارنا الذي تشتد الحاجة إليه مع الموت».

مارغريت درابل

(روائية إنجليزية، مُنحت عام ٢٠١١ جائزة «غولدن بن» لمجمل إنجازاتها في مجال الأدب)

«كتاب كوري تايلر يجمع بين كونه مذكرات دقيقة ومؤثرة حول اعتباطية الأسرة، وبين كونه استجابة ثقافية جديرة بالإعجاب لاعتباطية الحياة والموت. ينبغي علينا جميعًا أن نأمل في امتلاك مثل هذه النظرة الحيوية إلى الماضي، والنظرة القوية إلى ما هو قادم، حينما نصل نحن أنفسنا إلى النهاية».

جوليان بارنز

(روائي إنجليزي، نال جائزة البوكر عام ٢٠١١ عن روايته «الإحساس بالنهاية»)

«ظريف، وعميق، والأهم من ذلك كله، مُواسٍ. إنه يفعل كل ما تفعله الكتابة العظيمة، إذ تشعر معها على الفور بأنك أقل وحدة. أفضل ما قرأته هذا العام».

بنيامين لو

(مؤلف وصحفي أسترالي، اشتُهر بكتابه «عائلة لو» الصادر عام ٢٠١٠)

«إن كان ثمة حاجة لمناقشة أكثر انفتاحًا عن الموت في الغرب، فإن كتاب تايلر هو بمثابة الدليل الإرشادي لهذه المهمة، فهو مليء بالحكمة والهشاشة؛ كما أنه باعث على الطمأنينة بشكل كبير. فالموت، كما تقول كاتبته مرارًا وتكرارًا، نشاط مدموغ بالوحدة في عمقه، فلا أحد يستطيع الموت معك. غير أن هذا الكتاب يمكن أن يكون رفيقًا، جُعل منه أكثر صلابة بسبب افتقاره إلى العاطفة المفرطة وأي وسائل راحة زائفة أخرى».

ملحق التايمز الأدبي

«إن ما يضفي على هذا الكتاب طابعه الخاص، بالإضافة إلى دقة كتابة تايلر، هو افتقارها إلى الجزم بصحة ما تطرحه من أفكار».

الغارديان

«كُتب هذا التأمل العميق بشكل جميل، ويُقدّر له أن يكون جزءًا مهمًا مما يحيط بالموت من حوار. إن شـهادة تايلر في الحياة هديةُ رحيلٍ مرحّب بها من مؤلفة عميقة التفكير وملهمة».

ببلِشرز ويكلي

«خاتمة رائعة ومحزنة».

سيدني مورننغ هِرالد

«تقود [تايلر] بنية رائعة وتحكمًا. تصـل إلى «حافة الكلمات» وفي فقراتها الأخيـرة تُدخل تحويرًا كيميائيًـا على صور كتابها واستعاراته ولحظاته لتصبح شيئًا متسمًا بالخفة والتسامي - فالكلُّ لا يتجاوز مجموع أجزائه فحسب، بل إنه يضيئها بوهج رائع».

أستراليان

* * *

مقدمة المترجم

يمكن للمرء أن ينتصر في كل معارك الحياة سوى معركة واحدة هي معركته مع الموت، فانتصار الموت حتميٌّ وهزيمة الإنسان محسومة إزاءه. ومن سعادة الإنسان (إن كان ثمة سعادة يمكن التفكير فيها في هذا السياق) وشقائه معًا أنه لا يعرف أبدًا وعلى وجه التحديد متى يطرق الموت بابه ويدكُّ حصونه ويطفئ قنديله ويخمد اللهب المتأرجح في فتيل شمعته لينتقل من مملكة الوجود إلى مملكة العدم.

ولكن، وفي حالات استثنائية قليلة نسبيًا، يصبح بوسع الإنسان أن يعرف على وجه التأكيد والقطع والجزم (كحالة المحكومين بالإعدام مثلًا) أو على سبيل التقريب والتخمين والتقدير (كحالة المصابين بمرض عضال لا يُرجى الشفاء منه)، الموعدَ الذي يصل فيه الموت إليه ليحين موعد ترجُّله عن قاطرة الحياة التي تمضي بما فيها من ركّاب ولا تتوقف لأحد ولا تبطئ من سرعتها ولا تلتفت أبدًا إلى الوراء.

وعلى الرغم من أن وعي الإنسان بالموت حاضر بشكل دائم في وعيه أو في لاوعيه في سياق حياته الاعتيادية، إلا أن ذلك الوعي يتضاعف ويصبح أكثر حدة وتحفـزًا حين يعرف المرء، بدرجة أو بأخرى، الموعد الذي ضربه له الموت للقاء به، فيكون تعبيره عن ذلك الوعـي (إن عبّر عنه) أكثر صدقًـا وأوجع وقعًا وأحدَّ ألمًا من غيره، لا سـيما إن كان المعنيُّ هنا ممن أسلست اللغة لهم قيادها وأدنت لهم ركابها من كتّاب وشعراء.

ولن نحتاج لكبير جهد إن شئنا استدعاء بعض الأمثلة الشهيرة من النصـوص والكتاب والشـعراء الذين خاضوا هـذه التجربة وعبّروا عنهـا بنصوص خلّدت أسـماءهم وبقيت بعدهم عصية على النسيان متأبية على الموت، ليس بدءًا من مالك بن الريب حين رثى نفسه تلك المرثية الخالدة، ولا انتهاء بمحمود درويش حين روى تجربته مع الموت الذي عاد منه في جداريته الشهيرة.

الروائية وكاتبة السيناريو الأسترالية كوري تايلر خاضت غمار هذه التجربة بكل تفاصيلها المؤلمة فشاءت أن ترسم لنا صورًا بالكلمات وتجعلنا نرى ما رأته، حسب تعبيرها، في هذا الكتاب الصغير بفصوله الثلاثة، والكبير بما يختزنه من تجارب إنسانية ثرَية يمتزج فيها تأمل تجربة الموت بتقاطعات السيرة الشخصية والأسرية وأسئلة الحياة المصيرية.

كان أحد الأسباب التي دفعت تايلر للكتابة هو محاربة «الصمت المتوحش» الذي يعيشه معظمنا إزاء الموت، إذ أن أغلبنا يتحاشى ذكره، ويتعامل معه باعتباره شيئًا يحدث للآخرين فقط وليس «لنا» نحن، رغم أننا وعلى الدوام على بعد «مليمتر واحد» دائمًا وأبدًا منه. ولهذا المليمتر الواحد حكاية يحسن بكم أن تسمعوها من مؤلفة الكتاب نفسها.

إصابة تايلر بالسرطان واكتشافها المتأخر لذلك دفعها للتأمل في حالة شريحة غير قليلة من المحتضرين الذين يعيشون بيننا دون أن نراهم، والذين لن يعرفهم إلا من يزور أقسام الأورام في المستشفيات الكبرى، لأنهم يؤثرون الصمت أو لا يملكون القدرة على التعبير والكتابة، أو ربما يتحاشونها لأن فيها مواجهة مع الذات يتجنبها الكثيرون.

كانت تايلر، كما تقول هي عن نفسها، تسعى لأن تصنع «شكلًا لموتها»، ليتمكن الآخرون من رؤيته بوضوح، ولتجعل من الموت أمرًا ممكن الاحتمال بالنسبة لها. وكان لموتها البطيء ميزة وحيدة، كما تعبّر، وهو أن «لديك الكثير من الوقت للكلام، لتخبر الناس كيف تشعر، لتحاول أن تفهم الأمر برمته، عن الحياة التي على وشك الانقضاء، لك أنت ولأولئك الذين يبقون بعدك على حد سواء».

كانت أمام مفترق طرق أخير في حياتها، وكانت في حيرة من أمرها أمام خيارين «أحلاهما مرّ»، كما يقول أبوفراس الحمداني، فإما أن تنتظر وصول «الموت البطيء» إليها، مع كل ما قد يصحب ذلك من آلام وتدهور في الصحة وخَوَرِ الجسد وضعفه، وربما عجزه التام، وإما أن تأخذ الأمر بيدها، وتمشي هي صوب الموت بدل أن تنتظر وصوله إليها، وهو خيار كادت كفته أن ترجح لديها لولا اعتبارات قانونية رسمية لا تتيح لها ذلك في بلدها، وأخرى إنسانية، بل أسرية على وجه التحديد تتعلق بأثر ذلك وتأثيره على أفراد أسرتها، وبخاصة زوجها وولديها.

هذا الكتاب، إذن، هو حكايتها مع الموت الذي لم يمهلها طويلًا لتفرح به وبردود الأفعال والكتابات الإيجابية الكثيرة التي حظي بها من أسماء مهمة ولامعة في عالم الأدب، إذ أنها رحلت عن عالمنا بعد شهرين فقط من نشره ليظل سجلًا لسيرتها مع الموت وشهادة على ما بوسع الكتابة أن تفعله وتقدمه للكاتب وهو يرى جسده ينحدر نحو الهاوية، فسعادة الكاتب كما تخبرنا تايلر لا تُضاهى حين يكتب، أو يفكر في الكتابة، أو ينظر إلى العَالم بوصفه كاتبًا. كانت هذه سيرة كل كاتب مع الكتابة وستبقى كذلك إلى الأبد.

ختامًا، بقي أن أشير إلى أنني أبحتُ لنفسي التصرف قليلًا في ترجمة عنوان الكتاب الأصلي Dying وترجمته الحرفية «الموت» أو «الاحتضار» إلى «في معنى أن نموت» لسببين هما، أولًا: أن ذلك مما هو «مباح» وجرى العرف باتباعه في كثير من الأحيان، وثانيًا: أن وَقْعَ وإيقاع وإيحاء العنوان الذي اخترته أقوى وأثبت في السمع والوجدان، أو هكذا أحسبُ. ولعلَّ القارئَ الكريم يوافقني الرأي، وإن لم يكن ذلك كذلك، فيظلُّ هذا الأمر اجتهادًا مني أتحمل وحدي كافة تبعاته.

عبدالوهاب خليل أبو زيد

١٩ ديسمبر ٢٠٢٠

إلى شِن

۱
قدمان باردتان

قبل قرابة عامين اشتريت دواءً يُستخدم للقتل الرحيم عبر الإنترنت من الصين. تستطيع الحصول عليه بتلك الطريقة، أو بوسعك السفر إلى المكسيك أو بيرو لتشتريه من هناك بشكل قانوني من طبيب بيطري. وكل ما يلزمك قوله فيما يبدو هو إنك تحتاجه لإنهاء حياة حصان مريض وسيبيعونك الكمية التي تريدها. وسيكون عليك بعد ذلك إما أن تتناوله في غرفة الفندق الذي تقيم فيه في ليما، وتترك لأسرتك تفاصيل التعامل مع نقل رفاتك إلى الوطن، أو أن تهربه في حقائبك للاستخدام لاحقًا. لم أكن أخطط لاستخدام دوائي على الفور، ولم تكن صحتي تسعفني للسفر إلى أمريكا الجنوبية، لذا فقد رجحتْ لديّ كفة الخيار الصيني.

كان دوائي الصيني في هيئة مسحوق، وكنت أحتفظ به في كيس مفرغ من الهواء في مكان آمن وسري، مع رسالة انتحار. كتبت الرسالة قبل أكثر من عام، قبل بضعة أيام من حلول موعد إجرائي لعملية الدماغ. كنت مصابة بالميلانوما[1] في الجزء الذي يتحكم في حركة أطرافي من الجهة اليمنى من دماغي – وهو ورم لا أمل

---

(١) الميلانوما Melanoma، أو سرطان الخلايا الصبغية، أيضًا يعرف بالورم الميلانيني الخبيث، وهو نوع من أنواع السرطان الذي يتطور من الخلايا التي تحتوي على الصبغة الغامقة، الميلانين، المسؤولة عن لون البشرة، المعروفة باسم الخلية الميلانينية. (ويكيبيديا) [المترجم]

في الشفاء منه، ولا توجد ضمانات بأن السرطان لن يعود مرة أخرى بعد الجراحة. في ذلك الوقت كان لدي ترسبات من الميلانوما في أماكن أخرى أيضًا، في رئتي اليمنى، وتحت الجلد على ذراعي اليمنى، وثمة ترسبٌ كبيرة تحت كبدي، وآخر يضغط على إحليلي، مما استلزم وضع دعامة بلاستيكية في ٢٠١١ لكي تستمر كليتي اليمنى في العمل.

شُخّصتْ حالتي للمرة الأولى في ٢٠٠٥، قبيل عيد ميلادي الخمسين، بعد أن جاءت نتيجة الخزعة التي أخذتْ من شامة وراء ركبتي اليمنى موجبةً بوصفها ميلانوما من المرحلة الرابعة. منذ ذلك الحين كان تقدم مرضي بطيئًا بشكل رحيم. مرّت ثلاثة أعوام قبل أن يظهر في الغدد اللمفاوية في منطقة الحوض وعامان آخران قبل أن يبدأ في الانتشار في مناطق أخرى من جسدي. أجريت لي جراحتان، تعافيت منهما بشكل جيد، ولم أشكُ ما بينهما من أعراض موهنة. في ذلك الوقت نجحتُ في إخفاء أمر مرضي عن الجميع فيما عدا أصدقائي المقربين. وحده زوجي، شِن، كان يعرف القصة كاملة، لأنه رافقني إلى جلسات الأشعة الروتينية ومواعيد الطبيب المتخصص. لكنني أخفيت التفاصيل عن ابنينا المرَاهقين، محاولة، كما أفترض، أن أحميهما من الألم، لأن تلك كانت مهمتي بوصفي أمهما. وبعد ذلك، في ديسمبر ٢٠١٤،

أصبتُ بنوبة تركتني لبعض الوقت عاجزة مثل طفلة ولم يعد باستطاعتي إنكار ما هو بيّن.

لذا فقد عقدنا اجتماعًا عائليًا في منزلنا بالقرب من وسط بريسبن – شِن، ابننا الصغير دان، صديقته ليندا، ابننا الكبير نات وزوجته آساكو، اللذان أوقفا كل شيء وسافرا من كيوتو حيث كانا يقيمان لعامين. وعلى مدى الأيام القليلة التالية، أطلعتهم على كل الإجراءات الروتينية التي سيكون عليهم اتباعها إذا ما حدث السيناريو الأسوأ: وصيتي، التفويضات، حساباتي البنكية، الضرائب، التقاعد. غمرتني طمأنينة لإحساسي أنني أضع الأمور في نصابها فيما يخص أسرتي، وأعتقد أن ذلك جعلهم يشعرون بالاطمئنان لأنهم أحسوا بأن لهم دورًا يلعبونه. كما أنني صرحت باهتمامي بأدوية القتل الرحيم وعلى نحو مراوغ وقلتُ إنها في قائمة أمنياتي للكريسماس. سميتها حزمة هدايا مرلين مونرو الخاصة بي، وقلت: «إن كانت جيدة بما يكفي لها، فهي جيدة بما يكفي لي. حتى لو لم أستخدمها على الإطلاق، فإن مجرد معرفتي بأنها هناك سيمنحني شعورًا بالسيطرة».

وبما أنهم لم يعترضوا على ذلك، أعتقدُ أنهم تفهموا الأمر.

كانت رسالة انتحاري بمثابة اعتذار. كتبت فيها: «أنا آسفة. أرجوكم سامحوني، ولكنني إن أفقتُ من الجراحة وقد تضررتُ كثيرًا، وأصبحتُ غير قادرة على المشي، مع اعتمادي بشكل كليّ

على الآخرين ليعتنوا بي، فإنني أفضل أن أضع حدًا لحياتي».
كما أنني كررتُ ما أخبرتهم به مئة مرة بشكل صريح: كم أحببتهم جميعًا، وكم من البهجة منحوني إياها. شكرًا لكم، قلتُ لهم. تحدثوا معي إذا متُّ، وسأستمع إليكم. لم أكن واثقة عن مدى صحة ذلك، ولكنه أبعد ما يمكنني الذهاب إليه في عالم الماورائيات، وكان للأمر مغزاه المتفهم حينها، بالنظر إلى أنني كنت بالفعل أكتب للأحياء من وجهة نظر الموتى.

وحدث أن خرجتُ من الجراحة، لستُ سليمة بشكل كامل، ولكن لستُ في حالة مزرية. أزيل الورم من دماغي بنجاح. قدمي اليمنى لن تستعيد قوتها مرة أخرى أبدًا، لذا فإنني أعرج، ولكن حركتي في الجزء المتبقي من جانبي الأيمن اعتيادية. وبعد أكثر من عام على الجراحة، ما زلتُ حية أرزق. ورغم ذلك، تظل حالتي سيئة. ليس هناك علاج للميلانوما. يتم حاليًا تجربة عدد من الأدوية، مع نتائج متفاوتة. وقد خضعتُ لتجربة ثلاثة أدوية، وليس بوسعي القول بشكل مطلق إن أيًا منها قد أبطأ المرض. كل ما أعرفه أنني في نهاية المطاف، ورغم كل ما بذله طبيب الأورام من جهود، استنفدتُ فرص علاجي. حينها تيقنتُ أنني شارفتُ على النهاية. لا أعرف متى، أو كيف على وجه التحديد،

سأموت، ولكنني كنت أعرف أنني لن أتجاوز عامي الستين بكثير.

ومع تدهور صحتي بشكل مستمر، بدأتُ في التركيز على مسألة وضع حدٍّ لحياتي كما لم أفعل من قبل. فبعد كل شيء، وفي سابقة بالنسبة لي، فقد ذهبت إلى حد تجاوز القانون وتعريض نفسي لخطر الملاحقة القضائية، في سبيل الحصول على الوسيلة. إن خبيئتي تناديني ليلَ نهارَ، مثل عاشق غير شرعي. إنها تهمس لي، دعيني أخلصك من كل هذا الشقاء. إن دوائي سيذهب مباشرة إلى مركز النوم في الدماغ في الوقت الذي يكون الدماغ بحاجة إليه لإتمام جملة من الجُمل. ما الأمر الأسهل من ابتلاع جرعة مميتة لكي لا تستيقظ مرة أخرى أبدًا؟ بالتأكيد إن ذلك سيكون مفضلًا على الخيار الآخر، وهو أن يموت المرء ميتة طويلة وشنيعة.

ومع ذلك فإنني أتردد، لأن ما يبدو أنه حل ناجع ليس كذلك مطلقًا. أولًا، هناك مدى عملية شروعي في تطبيق مثل هذا الخيار. فوفق ما ينص عليه القانون في أستراليا، سيكون عليّ تناول دوائي وحدي، لكي لا أورط أي أحد في موتي. فرغم أن الإقدام على الانتحار ليس جريمة، إلا أن مساعدة شخص ما لينتحر أمر غير قانوني ويعاقب عليه بالسجن لمدة طويلة من الزمن. ثانيًا، هناك

الانعكاسات العاطفية التي ستصيب الآخرين إن أقدمتُ على هذا الفعل، سواء أكان ذلك في غرفة فندق أم في مكان آخر، أم في مضمار جري بين الأدغال. أطرح على نفسي سؤالًا حول إن كنتُ أملك الحق لأصدم منظفة غرف تعمل في أحد الفنادق، أو أحد الذين يمشون بين الأدغال، فيدفعه حظه السيء لاكتشاف جثتي. وأكثر ما يثير قلقي هي انعكاسات ذلك على شِن والولدين، فبقدر ما حاولت إعدادهما لاحتمال إقدامي على ذلك، فإنني موقنة أن حدوث ذلك بالفعل سيترك أثره البالغ العمق في نفوسهم. يقلقني، على سبيل المثال، أن شهادة وفاتي ستظهر «الانتحار» باعتباره سبب الوفاة، بكل ما تشير إليه هذه الكلمة هذه الأيام: اليأس، الضعف، الأثر الضئيل الدائم للإجرام – وهو أمر مختلف جدًا عن، لنقل، الطريقة اليابانية سيبوكو[1]، أو الانتحار بغرض الدفاع عن شرف المرء. حقيقةُ أن السرطان كان هو قاتلي لن تبلغ الأجيال القادمة، وكذلك حقيقةُ أنني لست مجنونة، وفق أي مقياس منصف.

وإذ أواجه كل هذه العوائق، أتأمل في مستقبلي المظلم بما

---

(١) اسم آخر للهاراكيري، طريقة انتحار محاربي الساموراي الشهيرة، وتعني حرفيًا تقطيع الأحشاء، ويلجأ إليه تحاشيًا للوقوع في أيدي الأعداء أو لمسح عار الهزيمة. [المترجم]

أستطيع استدعاءه من الشجاعة. أنا محظوظة لعثوري على أخصائية عناية تلطيفية بارعة وخدمة تمريض منزلية استثنائية، لذا، فبالإضافة إلى أسرتي وأصدقائي، فلدي من الدعم كل ما يمكنني أن أتمناه. غير أنني إذا ما عبّرتُ عن رغبتي في وضع حدٍّ لحياتي، فلا شيء من ذلك الدعم سيكون متاحًا لي قانونيًا. سأكون وحدي تمامًا. إن قوانيننا، بخلاف القوانين في بلدان مثل بلجيكا وهولندا، ما تزال تمنع منعًا باتًا أي نوع من أنواع المساعدة في الموت للناس الذين يعانون من مثل حالتي. بدا لي أن أسأل لماذا. أتساءل، مثلًا، إن كانت قوانيننا تعكس نفورًا عميقًا بين الأطباء هنا تجاه فكرة التنازل عن عملية التحكم في الموت لتكون بيد المريض. أتساءل إن كان هذا النفور ربما ينبع من إيمان أكثر عمومًا في مهنة الطب بأن الموت يمثل شكلًا من أشكال الفشل. وأتساءل إن كان هذا الاعتقاد قد تسلل إلى العالم الأوسع على هيئة نفور من موضوع الموت بحد ذاته، كما لو أن الحقائق الصارخة لفنائنا يمكن لها أن تُزال من وعينا بشكل كلي.

ولا يمكن أن يكون هناك جهد لا طائل من ورائه أكثر من ذلك، لأنه إن كان هناك شيء واحد يعلّمك السرطان إياه، فهو أننا نموت زُرافاتٍ، طوال الوقت. كلُّ ما عليك فعله هو الذهاب

إلى قسم الأورام في أي مستشفى كبير والجلوس في غرفة الانتظار المزدحمة. سترى أناسًا تُحتضر تحيط بك من كل جانب. وإن حدث ورأيت معظمهم في الشارع، فلن تدرك ذلك، ولكنهم هنا مصطفون، بانتظار معرفة آخر نتائج فحوصاتهم، ليعرفوا إن كانوا قد أحرزوا تقدمًا غير متوقع هذا الشهر. إنه مشهد صادم إن لم تكن معتادًا عليه. كنتُ غير مستعدة لهذا الأمر كحال معظم الناس. بدا الأمر كما لو أنني انتقلت فجأة من أرض الأوهام إلى مملكة الواقع.

هذا هو سبب إقدامي على كتابة هذا الكتاب. الأشياء ليست كما ينبغي أن تكون. بالنسبة لكثيرين منا، أصبح الموت ذلك الشيء الذي لا يُذكر، والصمت المتوحش. ولكن هذا لا يمد المحتضرين بأي عون، أولئك الذين ربما يعانون من الوحدة الآن أكثر من أي وقت مضى. على الأقل هذا هو ما أحس به.

***

لم يسبق لي أن رأيت أحدًا يموت من قبل. وإلى أن أصيبت أمي بالخرف لم يسبق لي أبدًا رؤية أحد في حالة مرضية شديدة. كانَ تدهور صحة أمي بطيئًا في البداية، ولكنه أصبح سريعًا جدًا بعد ذلك. وحين قاربت حياتها على الانتهاء كان بالكاد يمكن

التعرف عليها بوصفها الأم التي أحببتها كثيرًا وأعجبتُ بها. كنتُ خارج البلاد حين ماتت في النهاية، ولكنني كنت هناك خلال الشهور التي سبقت وفاتها وشاهدت الويلات التي عانتها، الألم والإذلال، وخسران الاستقلال والعقل.

كانت في دار مسنين حين ماتت، وهو مكان لليأس المتواصل بحيث كان مجرد عبوري لبوابتها امتحانًا لقوة إرادتي. المرة الأخيرة التي شاهدتها فيها، وقفتُ عاجزة حين كانت ممرضة يابانية تنظف مؤخرتها. كانت أمي تتشبث بحوض الحمام بكل قوتها المتضائلة، بينما كانت الممرضة تضع حفاظة جديدة على مؤخرتها الذاوية. النظرة التي كانت في عيني أمي وهي تلتفت وتراني أراقب ذكرتني بحيوان يعاني عذابًا لا وصف له. في تلك اللحظة تمنيتُ أن يختطفها الموت سريعًا، لينتهي العذاب الذي دمغ حياتها اليومية. ولكنه استمر، لعام كامل، جسدها كان يقاوم في حين أن عقلها غادره تمامًا. لم يكن بوسعي التفكير في شيء أكثر قسوة ولا ضرورة له منه. كنتُ أعرف أنني أعاني من السرطان حينها، وكان جزء مني ممتنًا لذلك. على الأقل لن أضطر لأن أموت مثل أمي، قلتُ لنفسي. كان ذلك شيئًا يستحق الاحتفاء به.

كانت أمي من عرّفتني بالجدل المثار حول المساعدة في الموت. في البدء تعرّفتْ هي على حركة القتل الرحيم التطوعية،

كما كانت تُعرف حينئذ، وكانت في الستينيات من عمرها، وكنت أعرف أنها قضية استمرت في دعمها، لأنها أخبرتني بذلك. وقتها لم أعبأ كثيرًا بالأمر كما كان ينبغي لي. كانت أمي تطلب مني المساعدة، ولكن لم يكن واضحًا ما المساعدة التي كانت تنشدها. ربما محض تشجيع للنظر في المشكلة بشكل أكثر تمعنًا، أن تحصل على الوسائل الضرورية إن استدعى الأمر ذلك. لم أُبدِ استعدادًا للتقبل. في تلك الأيام لم يكن هناك خطب تشكو منه أمي، أو أشكو منه أنا، لذا فإن نقاشاتها لدعم مبدأ المساعدة في الموت كانت أكاديمية بحتة. بطبيعة الحال، في الوقت الذي أصبحت فيه حقيقية وملحة، كانت أمي قد تأخرت كثيرًا في تحويل النظرية إلى تطبيق عملي، وكان عقلها قد فقد حدته، حتى أن أكثر الأطباء حسنَ نيةٍ في العالم ما كان بمقدوره أن يمد لها يد العون، على الرغم من السنوات التي أخلصتْ فيها للقضية.

لم أكن هناك حين مات أبي كذلك، وقد حدث ذلك في دار للمسنين أيضًا، وأيضًا من مضاعفات ناجمة عن الخرف. كان والداي قد انفصلا بالطلاق قبل قرابة خمسة وثلاثين عامًا وقد أُبعدتُ نتيجة لذلك عن والدي. لكن إحدى ذكرياتي الراسخة عنهَ هو حله القائم على الأهواء لما يؤدي إليه التقدم في السن من الشعور بالهوان. أخبرنا – أنا، أمي، وأخويّ الأكبر سنًا مني – أنه

خطط للإبحار إلى عمق المحيط الهادئ وإغراق نفسه. ولكنه توقف عند العائق الأول بشكل متكرر، إذ لم يقتن قاربًا على الإطلاق. كان يقرأ مجلات متخصصة في القوارب ويرسم الدوائر حول الإعلانات. كان يقود سيارته لمسافات طويلة بسبب قوارب أحب أسماءها، ولكنه كان دائمًا يجد سببًا كي لا يُقدم على الشراء. المال كان شحيحًا، أو أنه لم يكن يريد الإبحار وحده. وفي إحدى المراحل، طلب من أمي أن تشاركه الشراء وتقود القارب له، وهو عرض رفضته. ربما كان ينبغي لها أن تقبله. ربما كان من الأفضل لو أنهما أبحرا صوب غروب الشمس كي لا يعودا أبدًا؛ وبدلاً من ذلك عاشا طويلًا وماتا على نحو سيء.

لا شك أن حالة الرعب التي أصابتني إزاء الكيفية التي أنهى بها والداي حياتهما تركت أثرها لدي لكي أنظر في طرق قد أطورها حين يحين دوري. بهذه الفكرة في ذهني، وعقب تشخيصي بالسرطان، اقتفيت أثر أمي والتحقت بـ «إغزت إنترناشنال Exit International»[1]، راغبة في الحصول على آخر ما يستجد في

(١) إغزت إنترناشنال Exit International هي منظمة دولية غير ربحية تدعو إلى تقنين القتل الرحيم الطوعي والانتحار بمساعدة. كانت تُعرف سابقًا باسم مؤسسة أبحاث القتل الرحيم الطوعي. أسسها الطبيب فيليب نيتشيك عام ١٩٩٧ في أستراليا. [المترجم]

حقل المساعدة على الموت. التحقت كذلك بـ «ديغنيتاس Dignitas»[1] في سويسرا، حيث يُعد قانونيًا مساعدة الأجانب كي يموتوا، شريطة أن يكونوا يعانون من مرض عضال. ذاك كان نشاطًا لجمع المعلومات لاستكشاف الخيارات المتاحة لي، بخلاف تلك المعروضة من قبل أطبائي. لا أودُّ الاستخفاف بالأطباء الذين اعتنوا بي طوال الوقت. فعلى صعيد فردي كانوا استثنائيين، وبالطبع أدين لهم بالامتنان. وفيما عدا أخصائيي العناية التلطيفية الذين تحدثت إليهم، لم يثر أي واحد من أطبائي أبدًا موضوع الموت معي، وهي حقيقة ما زلت أجدها محيرة.

لذا فالهدف الآخر وراء الانضمام إلى Exit كان العثور على منصة أتمكن عبرها من التطرق للموضوع، متحدية التابو الذي شعرت أنه يمنع أطبائي من الحديث معي بلا قيود حول شيء وثيق الصلة بشكل جلي. وعلى الرغم من حتمية الموت، يبدو من الغريب أنه لا توجد إلا فرص ضئيلة جدًا للحديث عن

(١) ديغنيتاس Dignitas هي جمعية سويسرية غير هادفة للربح تقدم الانتحار بمساعدة لأعضاء المنظمة الذين يعانون من مرض عضال أو أمراض جسدية أو عقلية شديدة، بدعم من أطباء سويسريين مؤهلين مستقلين عن المنظمة. مؤسسها هو لودفيغ منيللي عام ١٩٩٨. [المترجم]

الموت في العلن. كانت لقاءات Exit هي المناسبات الوحيدة التي كان متاحًا للناس فيها أن يتحدثوا عن الموت باعتباره حقيقة من حقائق الحياة. كان التفاؤل يسود على الجو العام للقاءات. وكان يحضر لقاءات الفرع المحلي الذي كنت أتبع له قرابة أربعين عضوًا، عديد منهم مسنون، ولكن مع مجموعة صغيرة من صغار السن المتحمسين، أيًا كان السبب، لتبادل المعلومات حول طرق ووسائل الموت. ثمة طابع سري يحيط بتلك اللقاءات، بالنظر إلى أن محض توجيه النصيحة بخصوص الانتحار يمكن أن يدخل فيما يُعد جنحة إجرامية. ولكن ذلك يدعم أجواء التبجح والمعنويات العالية فحسب. وبالطبع كان هناك طابع المرح. هل سمعنا كلنا عن توم، الذي يطارح التسعين، والذي قرر أن يأخذ أنبوبة الهيليوم الخاصة به إلى المقبرة المحلية ليقتل نفسه بالغاز هناك؟ وفيما يظهر فقد استنتج أن الموتى لا يمكن أن يتزحزحوا. وبالمناسبة، إن كان هناك أحد مهتم بدورة تعليمية تنشيطية عن الهيليوم، فالرجاء التسجيل للورشة القادمة على وجه السرعة حيث أن المقاعد محدودة. قد يكون أي لقاء خاص بأي جماعة اهتمام مشترك، ناد للبولنغ، أو أخوية لمراقبة الطيور، فيما عدا أنه، وبعد استراحة

احتساء الشاي، سيعود النقاش إلى تصنيف غاز السيانيد والنيتروجين وفق الغرض من الاستخدام، والسرعة.

الفائدة الرئيسة من هذه اللقاءات بالنسبة لي هي ما تتسم به من روح الصداقة الحميمة. يتطلب الأمر شجاعة كي يتأمل المرء موته، وكما قلت سابقًا، فهي تجربة تشعر فيها بالوحدة بشكل لا يمكن التعبير عنه. أن تجد رفاقًا يشاطرونك رغبتك في معرفة المزيد، أن نبادر، وأن نضحك في وجه فنائنا المشترك، لهي هبة من الهبات. كم تبدو مختلفة عن تجربة غرفة الانتظار في المستشفى، حيث تجلس مع قطيع كئيب من المرضى مع التلفزيونات المعلقة التي تطلق صوتًا عاليًا، حارسًا سرك الصغير القذر إلى أن ينادي أحدهم اسمك. وسواء أكانت أخبارًا جيدة أم سيئة، فالرسالة واحدة. في المستشفيات لا نتحدث عن الموت، بل نتحدث عن العلاج. أخرج من جلساتي مع الأطباء وقد انتابني إحساس بأن إنسانيتي قد تم محوها باللقاء، كما لو أن كياني قُلص إلى مرضي وحده، كما لو أن كل شيء آخر يميزني قد تهاوى. وعلى النقيض من ذلك، أعود إلى البيت من لقاءات Exit وقد شعرت بالشجاعة، مقتنعة بأن كامو كان محقًا: الانتحار هو السؤال الفلسفي الجاد الوحيد.

تشجع Exit أعضاءها على الاستمرار في الحوار عبر تشكيل جماعات «قهوة ودردشة» أصغر مع الأصدقاء. ترأس جماعتنا جين، وهي أرملة مرحة في أوائل الثمانينيات من عمرها، تقيم ليس بعيدًا عني، في «كانغارو بوينت». هناك مقهى بالقرب من شقتها حيث يمكننا أن نجلس في الخارج على طاولة تحتل زاوية معزولة، حيث نؤثر تحاشي أن يسمعنا أحد. يبلغ عددنا، بما في ذلك نفسي، ستة أشخاص منتظمين في الحضور. يصطحبني لمكان اللقاء أندرو، الذي يعاني من سرطان الكلية، وكولين، الذي يعاني من مرض الزهامير في أولى مراحله. يصل توني على دراجته الهوائية برغم ارتعاشات الباركنسون. وتقود كارول سيارتها لمدة ساعة ونصف من ضواحي «صنشاين كوست». لا تشتكي كارول من مشكلة جسدية، ولكنها بعد سنوات من العنف، العاطفي والجسدي معًا، من قبل زوجها، أصبحت تعيش على خليط من أدوية مضادات الاكتئاب ومضادات القلق. معاناتها الذهنية تجعلها تتساءل حول جدوى الاستمرار في الحياة. الحديث حميم بشكل رائع. كل واحد منا يعرف لماذا نحن هنا. الغرض من ذلك هو أن يواسي كلٌّ منا الآخر، وأن نعرض رفقتنا. إننا نشبه آخر الناجين في سفينة غارقة، إذ ننضم إلى بعضنا بعضًا طلبًا للدفء.

لا أقصد أن أعطي الانطباع بـأن رفاقي مجمعون كلهم على الانتحار عنـد أقرب فرصـة ممكنة. ففـي تجربتـي الخاصة، لا يفترض لقاؤنا لمناقشة الانتحار ضمنًا أننا جميعًا ملتزمون بحزمٍ بإنهاء حياتنا. الأمر أقرب إلى رغبتنا في تأمل كيف ستكون الحال لو كان ذلك الخيار متاحًا لنا ضمـن نفس نوع الإطار التنظيمي الذي يوجد في بلدان تُعد فيها المساعدة في الموت أمرًا قانونيًا. ولكن لا يعني هذا القول إن أي واحد ممن تحدثتُ معهم حول خيار الانتحار يتعاطى مع المسـألة بخفة. نتحدث عن ذلك في طريق عودتنا إلى منازلنا من لقاء «القهوة والدردشة». وحتى لو توفرت لهما الوسائل، فإن آندرو وكولين تساورهما الشكوك في مدى قدرتهما على الإقدام على هذا الأمر.

«إنه أمر بالغ الحماقة»، يقول أندرو، وأنا أوافقه الرأي، مفكرة في غرفة الفندق الوحيدة وموظفة الفندق المصطدومة. «يشـبه الأمر أن تقول «سحقًا لكم» لكل عائلتك وأصدقائك».

وهذا هو سبب بقاء دوائي غير مُستخدَم، بسبب وخز الضمير الأخلاقي الذي أشترك فيه مع أندرو حول الأذى الذي يمكن أن يلحقه المرء دونما قصد بالآخرين، عبر مروقه وتصرفه الفردي.

***

يفاجئني أن أعاني من وخز الضمير، حيث أنني لم أنظر إلى نفسي مطلقًا كشخص يتمتع بقيم أخلاقية عالية، كما أنني لم أحظَ بخلفية دينية جادة أعلق عليها إطارًا أخلاقيًا. ومع ذلك فإنه ليس بوسع المرء أن يواجه الموت دون التأمل في أسئلة ذات طابع ديني، أو في غيابها، أو حول المسائل الأخلاقية، أو غيابها. على سبيل المثال، أتساءل إن كان الأطباء هنا يُثَبَّطون عن الحديث حول الموت مع مرضاهم تأسيسًا على الطبيعة العلمية والعلمانية المحضة التي يُدرس ويُمارس فيها الطب لدينا. من المحتمل أن التقاليد الطبية الأخرى، الأقدم ربما تفهم وتتقبل الحزن والخسران بأفضل مما نفعل نحن. وأتساءل حول أخلاقية الدعم الحكومي لأدوية السرطان التجريبية الباهظة الثمن، في حين أن هناك مجالات للبحث تعاني من انعدام الدعم. وكمثال على ذلك، وصل سعر آخر علاج للميلانوما أخذته، بين عامي ٢٠١٤ و ٢٠١٥، إلى ٨٥٠٠ دولار للجرعة الواحدة، على أن يُعطى كل ثلاثة أسابيع، لمدة غير محددة. وكنتُ المستفيدة من إعفاء مجاني للدواء، ولكنه سرعان ما أدرج ضمن «برنامج المساعدة الدوائية» وحظي بدعم حكومي، على الرغم من محدودية جدواه. وأخيرًا، أتساءل حول الدافع الديني وراء معارضة المساعدة في الموت

لمن هم مصابون بأمراض قاتلة مثلي. هل يمكن أن يكون السبب أنه يتم اعتراض رغبتنا في الموت، سواء أكنا متدينين أم لا، مِنْ قبل أناس يؤمنون أن الإله يغضب من الخيار الفردي في طريقة الموت؟ أو ما هو أسوأ من ذلك، وهو أن الإله يريد لنا أن نتعذب؟ لا أعرف الجواب لأيٍّ من هذه الأسئلة، ولكنني أعتقد أنها تستحق المناقشة.

كثير من الناس يسألون عن معتقداتك الدينية حين تُحتضر. أتذكر سؤال طبيبي العام لي إن كنت متدينة، حين قلت له إن خيارات العلاج قد نفدت بالنسبة لي. كان قد كتب لي للتو تحويلا إلى وحدة علاج تلطيفي، وهي موجودة في إحدى المستشفيات الكاثوليكية.

قال لي: «هل أنت من مرتادي الكنيسة؟»

«كلا».

«هذا جيد».

سألته لماذا فأخبرني أنه استشف من خلال خبرته أن الناس الذينَ يتمتعون بمعتقدات دينية يجدون صعوبة أكبر في الاحتضار من غير المؤمنين مثلي.

«لا أستطيع الجزم بالسبب وراء ذلك، ولكن الأمر على الأرجح مرتبط بالموقف من الألم، وما إذا كان شخصٌ ما يؤمن أنه يخدم غرضًا ما».

أخبرته أنني على أتم الاستعداد لأي ولكل أنواع مخففات الآلام. «أو الأفضل من ذلك كله، أطلقْ عليّ النار».

«سأدون ملاحظة بذلك»، قال لي.

حافظتُ على الحضور بانتظام في موعدي مع أخصائي العناية التلطيفية في المستشفى الكاثوليكي. لم أكن ميالة لحب المستشفى بعد أن قال طبيب الأسرة ما قاله. ولم يساعد في الأمر أن دار الرعاية التي تقطن فيها أمي، وهي أيضًا مؤسسة كاثوليكية، كانت جزءًا من نفس المجمع. لذا فإن شيئًا من الأسى الذي كنت أحس به دائمًا أثناء زيارتي لأمي كان يلقي بظلاله عليّ وأنا أشق طريقي إلى الأعلى صوب غرف العلاج في الطابق الخامس. وما إن فُتح باب المصعد كانت هناك نفس الرائحة الموجودة في دار الرعاية في الجوار، بول قديم ممتزج برائحة أزهار اصطناعية، والرائحتان تتمزجان لتشكلا رائحة دخان متعفن. ثمة ممر كان يأخذني إلى ما وراء الكنيسة الصغيرة، التي كان المدخل إليها مزينًا بلوحات

كئيبة وصور فوتغرافية لممرضات رحلن. وبطبيعة الحال، كان هناك صلبان في كل مكان، وصور للمسيح، يقصد منها أن تمد المؤمنينَ بالطمأنينة. غير أن الصور الأيقونية أخلّتْ بتوازني، كما لو أنني على وشك خوض اختبار لم أبذل له أدنى قدر من الاستعداد.

لقائي مع الطبيب كان أقل بعثًا على الاطمئنان مما أملتُ، حتى وإن كان هادئًا في حديثه ومتعاطفًا بما يكفي. كانت تحضر اللقاء ممرضة أكبر سنًا، وهي مثل الطبيب، بالكاد تبتسم. لو أن هذا المكان كان مدرسة أقيّمها، لأرى إن كانت مناسبة لأطفالي، لكنتُ اتخذتُ قرارًا ضدها على الفور، ولكنني كنتُ أمرُّ بتجربة أكثر غرابة بما لا يقاس، محاولة تكوين انطباع عن مكان ربما أموت فيه قريبًا، لأجده مخيبًا للأمل، بل ومخيفًا. فكرتُ في دوائي. لو وصل الأمر للاختيار بين الموت في هذا المكان، والموت بيدي، فإنني أعرف أي خيار هو الأرجح لدي. هذا ما يمليه المنطق السليم.

ولحسن الحظ عثرتُ منذ ذلك الحين على أخصائي عناية تلطيَفية أعجبني، وقد أحالني إلى خدمة تمريض منزلي يديرها بوذيون. الممرضات لسن بوذيات ولكن المؤسسة قد أسست على

يد رهبان وراهبات متمرسين في البوذية التبتية[1]، وهي تحظى بالدعم منهم. زارتني إحدى الراهبات مرتين، ولم تكن تلك الزيارتان بغرض العلاج، بل انطوتا على حوارين حول كيفية تقبلي لحالتي. مسألة الدين بطبيعة الحال طرحت في هاتين المحادثين، ولكن السبب الرئيس في ذلك هو أن الفضول يدفعني لأسمع من الراهبة عن كيفية اعتناقها لمعتقدها. أفترضُ أنها كانت عملية تدريجية من إدراك ما هو صالح لها، ومن الدراسة والتأمل لسنين قبل أن يسمح لها بالبدء في تدريبها الرسمي. ما يدفعني الفضول لمعرفته أكثر هو كيف تنظر إلى الإيمان. كنت قد أخبرتها بالفعل أنني لا أؤمن بالحياة الأخرى، ولكنها تتوسل لي لتغيير رأيي.

تصف لي كيف أن الجسد ينغلق في النهاية، دون أن يترك شيئًا سوى الروح. أحيانًا بعد أن يتنفس الجسد آخر أنفاسه، تُطلق الروح إلى الأثير.

«لقد شهدتُ ذلك»، تقول لي. «لقد رأيتُ ذلك مرارًا وتكرارًا».

«ما الذي يحدث بعد ذلك؟» أسألها.

«تبحث الروح عن تمثُّلها الجسدي التالي».

---

(١) البوذية التبتية هي فرع من البوذية يعتنقه الناس في منطقة التبت، وهو هناك الدين السائد. [المترجم]

«لماذا تفعل ذلك؟»

«إنها الرغبة».

أعرفُ ما يكفي عن البوذية لأفهم أنها تنظر إلى الرغبة بوصفها لعنة، وحين تبدأ الراهبة في وصف الدائرة اللانهائية من التناسخ الذي هو مصير الروح العادية، أستطيع أن أرى لماذا قد يرغب المرء في التخلص منها. ليس ذاك هو الجزء الذي يثير اهتمامي من قصتها، رغم ذلك. إنه افتراضها أن جوهرنا يمكن إدراكه حسيًا. لقد شاهدتُ كثيرًا من الناس يموتون. إن قالت إنها قد شهدت الجسد يتخلى عن الروح، فمن أنا، الجاهلة تمامًا في هذا المجال، لأجادل؟ وإن كانت على صواب، أريد أن أعرف إن كان ذلك سيحدث فرقًا في كيف نموت – بسرعة أم ببطء، بعنف أم بسلام، عبر حادثة أم بأيدينا نحن؟

أسألها: «ما رأيك في المساعدة في الموت؟»

فتقول: «أنا ضدها». يراودني شعور أنها قد تكون كذلك. وسيطول انتظاري قبل أن أقابل أي شخص ذي علاقة بالعناية التلطيفية لا يكون ضدها. ولكن الراهبة تروق لي، لذا فأنا لست علىَ وشك الجدال معها. أحب هدوءَها، وكيف أنها تنظر إليّ مباشرة حين تتحدث. بل إنني قررتُ دعوتها لتتلو صلاة في

عزائي، إحدى الصلوات التي اختارتها من *الكتاب التيبتي للأحياء والموتى*. يفاجئني أن ذلك قد يضفي عنصرًا طقوسيًا للمناسبة لن يكون متوفرًا دونها.

إن ذلك هو أحد أكثر التبعات الداعية للأسف الناجمة عن ترددنا في الحديث عن الموت. لقد فقدنا طقوسنا المشتركة ولغتنا المشتركة للموت، وعلينا إما أن نرتجل، أو أن نلجأ للتراث الذي نشعر إزاءه بمشاعر متناقضة. إنني أتحدث على نحو خاص عن أناس مثلي، ممن لا يمتلكون إيمانًا دينيًا. بالنسبة لنا يبدو أن الاحتضار يعرِّي محدودية العلمانية أكثر من أي شيء آخر. شعرتُ بذلك بشكل أكثر حدة حين لجأتُ إلى علم النفس للحصول على بعض الإرشاد. ذكر طبيب الأسرة أن من حقي الحصول على معونة سيكلوجية من «مجلس السرطان» إن كنتُ بحاجة إليها.

«ست جلسات مدة كل منها ساعة، مع توفر المزيد إن كان ثمة حاجة لها».

قلتُ: «لم لا؟»

أظهر نموذج تحويل على كمبيوتره.

قال: «علينا أن نقرر ما الاسم الذي سنطلقه على مشكلتك».

قلتُ: «الاحتضار».

أخذ يستعرض بصمت قائمة المشاكل التي تتوفر لها المساعدة.

«اضطراب التكيف».

ضحكتُ وقلتُ: «أنت تصطنع ذلك».

فما كان منه إلا أن أدار شاشة الكمبيوتر لأرى بنفسي.

جلستُ مع الطبيبة النفسية في غرفة اجتماع لا نوافذ فيها مؤثثة بمقاعد صالون زاهية الألوان. كان ثمة علبة مناديل موضوعة على الطاولة الجانبية، بالإضافة إلى كأس طويلة من الماء البارد. بدا أن الطبيبة النفسية كانت في بواكير ثلاثيناتها، وهي جميلة وأنيقة. دونت الملاحظات أثناء إخباري إياها تاريخ مرضي حتى الآن. طرحت بضعة أسئلة عن حياتي المنزلية، عن زوجي وأبنائي، عن روتيني اليومي. سألتني إن كنت أنام، وآكل، وأتدرب، وعما إن كانت لدي أي مخاوف.

قلتُ: «بالطبع. إنني خائفة من الموت».

«هذا شيء طبيعي جدًا. كيف تتعاملين مع مخاوفك؟»

«أحاول التفكير في أشياء أخرى. أقرأ، أشاهد التلفزيون، ألتقي بالأصدقاء».

«هل سبق لك أن سمعت بالتركيز الكامل للذهن؟»

كنت قد سمعتُ بالتركيز الكامل للذهن. زارتني إحدى المرشدات بعد العملية التي أجريتها في الدماغ. راجعتْ معي بعض التمرينات الأساسية: كيف أتنفس، كيف أستمع إلى الأصوات حولي، كيف أراقب أفكاري وهي تعبر.

قلتُ: «أستخدمه أحيانًا».

قالت: «من الجيد أن تخصصي بعض الوقت كل يوم لكي تستمعي بالأشياء الصغيرة، طعم تفاحة، لعب ضياء الشمس على الماء، رائحة المطر».

«أعرف ذلك»، قلتُ، وقد أحسستُ برغبة مفاجئة لمغادرة الغرفة.

لم يكن هذا ما جئت هنا لأستمع إليه. لا شك أن هذه الألمعية المتحصلة على قدرٍ عالٍ من التدريب تمتلك في جعبتها المهنية أكثر من نصائح الاسترخاء البسيطة التي كان بوسعي الوصول إليها عبر الإنترنت في أي يوم من أيام الأسبوع. قرأتُ أن مهنة الطبيب النفسي هي واحدة من بين أربعين وظيفة يُتنبأ لها بالاختفاء في المستقبل القريب، بالإضافة إلى سائق الحافلة وموظف الاستقبال في الفنادق. يقول البحث إن الناس الآن أكثر انطلاقًا

في التعبير عن مشاكلهم حين يتواصلون افتراضيًا بالمقارنة مع اللقاء وجهًا لوجه. أو ربما لأن مَن هم مثلي يتوقعون من الأطباء النفسيين أكثر مما يستطيعون تقديمه، شيء من الحكمة المتعالية حول أسرار الحياة والموت. الجيد في الأمر هو أنني لم أكن أدفع لاستشارتي، قلتُ لنفسي، أو لربما طالبتُ باستعادة مالي.

لم يعد لدي ما أقوله. وبدا واضحًا أنني لم أكن مريضة تعاني من حالة مستعصية، فاضطراب التكيف الذي أعاني منه يراوح بين أن يكون خفيفًا أو منعدمًا.

قلتُ، محاولة إنهاء الجلسة: «الحقيقة هي أنني حزينة بشأن كل الأشياء التي فقدتها. كان من الممكن أن أحظى بعشر سنوات أخر. ولكن، كما يقول سارتر، كل شخص يموت مبكرًا جدًا أو متأخرًا جدًا».

أومأت الطبيبة النفسية برأسها. لست واثقة إن كانت قد سمعت بسارتر، أو قدّرت رأيه حول أي شيء. قالت: «يمكن للحزن أن يتراكم. والخسارات الصغيرة واحدة تلو الأخرى يمكن أن تتضاعف. ربما يكون هذا شيء يمكننا الحديث عنه في المرة القادمة». أغلقتْ كرّاسها لتشير إلى أن ساعتي قد انقضت.

«يمكنك حجز موعدك التالي عند الاستقبال».

شكرتها رغم أنه لم تكن في نيتي العودة مرة أخرى.

كانت الطبيبة النفسية محقة في شيء واحد. الخسارات تتضاعف. أحيانًا، حين أكون جالسة على الشرفة الأمامية متأملة، سيتشتت انتباهي برؤية شخصين يتمشيان في المساء. سيكونان في طريقهما إلى النهر، الذي ليس بعيدًا من منزلنا. ثمة متنزه هناك يمتد على طول ضفة النهر لمسافة ثلاثة أو أربعة كيلومترات. كنت أتمشى مع زوجي في تلك البقعة بالقرب من النهر كل صباح ومساء. هكذا كنا نبدأ يومنا ونختتمه. الماء لا يظل على حاله أبدًا، فتارة يكون هادئًا، وتارة يكون عاصفًا، وتارة يندفع نحو البحر، وتارة أخرى يندفع إلى اليابسة. قد نتوقف لنراقب بطة تقود فراخها إلى الشاطئ، أو طائر الغاق في مهمة صيد. ومع انتشار العتمة في المساء، تأتي خفافيش الفاكهة مندفعة بالمئات من مواضع توالدها على الضفة البعيدة إلى شجرات التين الضخمة في هذا الجانب. لم نعد نمشي كما كنا. أخشى أن أقع وأكسر شيئًا. كما لم أعد أركب دراجتي هناك، وهي متعة أخرى تذهب. بشيء من الحسد، أشاهد الدراجين العابرين، يمضون على امتداد الطريق التي اعتدت المضي فيها، ضاغطين على دواسات دراجاتهم بقوة حين يبلغون التلة. بل إنني أحسد السائقين أيضًا. كان علي أن أكف عن القيادة بعد العملية التي

أجريتها في الدماغ، بسبب احتمال إصابتي بنوبة صرع أخرى. لكم أحب أن أركب سيارتي وأتوجه إلى شاطئ مهجور للسباحة. ولكن وزني أصبح أقل من وزن كلب جارنا. لن أنجح أبدًا في الصمود أمام انكسارة الموج الأولى. وهكذا تتشكل القائمة اللانهائية من المتع التي لم يعد بوسعي الاستمتاع بها. من اللامجدي افتقادي لها بالطبع، بما أن ذلك لن يعيدها مرة أخرى، ولكن هذا القدر الكبير من العذوبة مقدّر له أن يخلف وراءه فراغًا مريعًا حين يرحل. إنني ممتنة فقط لكوني تذوقتُ الكثير منها حين أتيحت لي الفرصة. تمتعتُ بحياة هانئة بهذه الطريقة، مليئة بمتع لا تحصى. حين تكون مشرفًا على الموت، حتى ذكرياتك الأكثر تعاسة يمكن لها أن تبعث نوعًا من الحنين، كما لو أن المتعة ليست مقتصرة على الأوقات الطيبة، بل إنها منسوجة خلال أيامك مثل خصلة من خيوط الذهب.

* * *

يحدث أن تتأمل في ماضيك حين تُحتضر. تبحث عن أنماط ونقاط تحول وتتساءل إن كان أي منها مهمًا. تلح عليك الرغبة في سرد حكاية حياتك لأطفالك حتى تسوي الأمور، وحتى يكوّنوا فكرة ما عن المكان الذي جاؤوا منه. واستجابة لهذه

الرغبة، توظف خدمة التمريض المنزلية التي تُعنى بي متطوعين يُسمَّون كاتبي السيرة، ممن يزورون المرضى، ويدونون حكاياتهم، ثم يقدمون نسخة مغلفة من المنتج النهائي ليقدموه إلى عائلات الموتى.

سوزان أديسون كانت كاتبة سيرتي. كانت تأتي كل أربعاء لأكثر من ثلاثة أشهر لتستمع إلى حكاياتي عن النجاح والفشل، وخلال تلك الفترة أصبحنا أقرب للصديقتين منا للمتطوعة والمريضة. كانت مصادفة سعيدة أننا كنا نتشارك الاهتمام بالكتب والكتابة. كان لسوزان ابنة تعمل كاتبة سيناريو في سيدني وكانت تعرف بعض نفس الأشخاص الذين كنتُ على معرفة بهم حين عشتُ هناك وعملتُ في نفس الوظيفة. ولأن لدينا الكثير مما نتشارك فيه، فقد كنا نتحدث بحرية كبيرة أثناء جلساتنا معًا، وقد أتيح لي أن أعرف عن تاريخ سوزان بنفس القدر الذي أتيح لها معرفته عني. منذ وقت مبكر، على سبيل المثال، أخبرتني أنها فقدت ولدها الوحيد بسبب سرطان الدماغ حين كان في التاسعة عشرة، وهو ما كتبتْ عنه في مذكراتها المنشورة بعنوان *عِرق الأم Mother Lode*.

أعارتني نسخة وقرأتها بشعور كبير من الشعور بالضعة

والاحترام. بالنسبة لشخص مثلي، لا يعرف إلا النزر القليل عن الموت، كانت قراءة هذه السيرة الجميلة، البعيدة عن الإفراط في العاطفة عن شخص يعرف الكثير عن الموت، بمثابة التهذيب لي. وسريعًا بعد رحيل ابنها، فقدت سوزان عددًا من أفراد أسرتها الآخرين بشكل متتابع ومتسارع، وقد حولها ذلك إلى أن تكون شبه متمرسة في الحزن. ولكن على الرغم من خساراتها فإنها رفضت أن تستسلم لرثاء الذات. لقد حظيت بالمساعدة، قالت لي. بعد شيء من البحث عن عزاء روحي، انضمت إلى جماعة الكويكرز وكانت عضوة منتظمة في اجتماعاتهم. كان ما أعجبها هو الصمت الذي يرين على اجتماعات الكويكرز، قالت لي، مفضلة إياها على الطقوس التي تحتوي على الشعائر والغناء. كما حظيت بدعم ومساندة من زوج محب، امتدت فترة زواجها منه لأكثر من أربعين عامًا.

تحت تلك الظروف، كان اهتمام سوزان وإصغاؤها لهذياني حول حياتي يستحق الإطراء. لا شيء من متاعبي الماضية يمكن أن يقارن بموت ابنٍ، ليس طلاق والديّ المربك، أو تخبطاتي الروَمانسية، أو مواطن فشلي وإخفاقاتي ككاتبة. حكايتي كانت الحكاية المميزة لشخص لم يعان حقًا. حقيقة أنني أحتضر الآن

كانت حزينة، ولكنها ليست تراجيدية. لقد عشتُ حياة زاخرة. ابن سوزان رحل وهو على أعتاب الرجولة. لم يكن ثمة مقارنة بين الميتتين. هذه الحقيقة ذكرتني مرة تلو أخرى أن ظروفي كانت فرصة للشعور بالامتنان لحظي الجيد غير المستحق أكثر من كونها مدعاة للحزن. ولداي كانا لا يزالان على قيد الحياة. ليس عليّ أن أعيش بعدهما كما كان على سوزان أن تعيش بعد رحيل ابنها. ذاك وحده كان مصدر راحة لا يُسبر غورها بالنسبة لي. وأظن أن سوزان تعلم ذلك. أظن أنها فهمتْ أنها لم تكن كاتبة سيرتي فحسب، بل دليلي، ومرشدي السياحي إلى البلد المرير الذي سافرتْ إليه مراتٍ عديدةً قبلي.

وفي أحد أيام الأربعاء لم تأت سوزان. انتظرتُ اتصالها لتقول إنها ستتأخر، ولكنها لم تفعل. لم أسمع شيئًا ليوم واحد، إلى أن اتصلت بي لين من خدمة التمريض لتخبرني بأكثر الأخبار حزنًا. أصيبتْ سوزان بجلطة شديدة وأدخلت إلى المستشفى.

قالت لين: «لا يبدو الأمر جيدًا. أنا آسفة جدًا».

قلتُ: «لا أصدقك! أنا التي يُفترض بها أن تموت».

«أعرف ذلك. نحن مصدومون. سأخبرك بما يستجد فور سماعي بأي شيء».

بعد بضعة أيـام اتصلتْ لين بي لتقول إن سـوزان لم تسـترد وعيها أبدًا.

قلتُ:«إنه لأمر بالغ السخف. كانت تجلس على طاولة مطبخي قبل أسبوع تضحك، وتروي القصص».

قالت لين: «أنا آسفة».

«لدي كتابان من كتبها»، قلتُ، كما لو أن فكرة كتابيها الثمينين قد يعيدان سـوزان مرة أخرى من عالـم الموتـى. كان الكتابان ملطخين ببقع القهوة، ومليئين بالخربشات. كانت لتود إعادتهما.

«سأخبر ابنتها»، قالت لين. «ربما تستطيع أخذهما».

«رجاء افعلي ذلك».

اتصلت بي ابنة سوزان وبكت على الهاتف. «سحقًا، سحقًا، سحقًا، سحقًا».

لم أسـتطع العثور على أي كلمات للتخفيـف عنها. أخبرتها فقط كيف مدّت أمها يد العون لي خلال الأشهر المنصرمة.

قلتُ: «كان من حسن حظي التعرف عليها».

«شكرًا لك».

أخـذتِ الكتابين قبـل يومين من الكريسـماس. كانت تشـبه والدتها كثيرًا، فارعة الطول، خفيضة الصوت، رابطة الجأش.

قالت: «كنا أربعة، والآن اقتصر الأمر على أبي وأنا».

سألتها عن أبيها، فقالت: «ليس على ما يرام. لقد حدث الأمر على حين غرة».

الجميع قالوا الشـيء ذاته. حدث الأمر على حين غرة، ولـم يكن التنبؤ به ممكنًا، وهو تذكير لنا جميعًا بمدى هشاشة الحياة. صحيح، ولكن لم يكن يُفترض بالأمور أن تجري على هذا النحو. كان يفترض بسوزان أن تكون شاهدة على رحيلي، وليس العكس. شعرتُ بالأسف لأننا لـم ندون قصة حياتها بدلًا من قصة حياتي خلال لقاءاتنا. شعرتُ بالأسف لأنها لـم تحظ بذات الفرصة التي حظيتُ بها، أن تطيل توديع من أحبتهم، أن تعدّهـم لحياة تخلو منها، لدرجة أن يكـون ذلك أمرًا متقبلًا. المـوت المفاجئ يبتر كل المقدمـات المروعة، ولكنني أتخيل أنـه يخلّف ندمًا فظيعًا على كل الأشـياء التي تُركـت دون أن تُقال إلى الأبـد. الموت البطيء، مثل موتي، له تلـك الميزة الوحيدة. لديـك الكثير من الوقت للكلام، لتخبـر الناس كيف تشـعر، لتحـاول فهم الأمر

برمته، عن الحياة التي على وشك الانقضاء، لك أنت ولأولئك الذين يبقون بعدك على حد سواء.

* * *

قبل بضعة أشهر دُعيتُ للمشاركة في برنامج لتلفزيون ABC اسمه «لا يحق لك طرح هذا السؤال». البرنامج قائم على فكرة أن هناك موضوعات محرمة من الصعب أن تتوفر حولها حوارات صريحة وصادقة، والموت واحد منها. شرحتْ لي منتجة البرنامج أنه سيُطلب مني الإجابة على عدد من الأسئلة أمام الكاميرا. قالت إن الأسئلة قد أُرسلتْ بالفعل من جميع أنحاء البلاد، وأنه قد وقع الاختيار على الأسئلة العشرة الأكثر تكرارًا. ولم يكن مسموحًا لي الاطلاع على تلك الأسئلة حتى اليوم الذي أتوجه فيه إلى الأستديو للتسجيل.

قالت: «ستكون مدونة على بطاقات وموضوعة بشكل مقلوب على الطاولة، وسيكون عليك اختيار بطاقة واحدة في كل مرة، وأن تقرأي السؤال، ثم تجيبي عليه».

قلتُ: «سأبذل قصارى جهدي»، وقد حدتني رغبة كبيرة لمد يد العون. لم أكن متحدثة بارعة قط. لطالما راودني شعور غير

مريح بالشك في أنني أدّعي الظهور بمظهر الخبيرة. ولكن في هذه الحالة ليس ثمة مجال للشك، فأنا أعرف عن الموت. وإن لم يكن في ملفي الطبي ما يكفي لإثبات ذلك، فليس عليك سوى أن تحدّق في وجهي الشاحب. كنتُ متفقة مع الفكرة، فالموت موضوع محرم، وهو كذلك على نحو سخيف. إنه يُدارى في المستشفيات، بعيدًا عن الأعين، فهو مجال الاختصاص السري للعاملين في المجال الصحي الذين لا تحدوهم الرغبة بشكل عام للحديث عنه.

تبين أن منتجة البرنامج نفسها كانت بحاجة للحديث عن الموت، فهي قد فقدت والدها مؤخرًا بسبب السرطان، وكانت تعاني للتكيف مع هذا الفقد. وهذه هي الحالة غالبًا مع من أتحدث عن حالتي معهم من الناس: يستمعون لبعض الوقت، ثم يسردون عليّ قصصهم الخاصة عن الموت، ولكن دائمًا بإحساس غامض بأنه أمر باعث للخجل، وأن الأمر المؤسف برمته هو بطريقةٍ ما خطؤهم. أردتُ عبر مشاركتي في «لا يحق لك طرح هذا السؤال» الإسهام بدور ما في تغيير الأشياء من حولي، وأن أسترد شيئًا من الكرامة لمن هم على مشارف الموت، لأنني لا أعتقد أن الصمت يخدم مصلحة أيٍّ منا.

تبين أن الأسئلة غير مفاجئة. هل لديّ أمنيات أودُّ تحقيقها قبل الموت، هل سبق لي التفكير بالانتحار، هل أصبحتُ متدينة، هل شعرتُ بالخوف، هل هناك ما هو إيجابي في الموت، هل لديّ أمور ندمتُ عليها، هل أؤمن بالحياة ما بعد الموت، هل غيّرتُ أولوياتي في الحياة، هل أنا تعيسة أو محبطة، هل أميل للمجازفة أكثر باعتبار أنني سأموت على أي حال، ما الذي سأفتقده أكثر من أي شيء آخر، كيف أحبُّ أن يتذكرني الآخرون؟ هذه هي الأسئلة نفسها التي كنتُ أطرحها على نفسي منذ تشخيصي بالسرطان في ٢٠٠٥. وإجاباتي لم تتغير منذ ذلك الحين.

كلا، ليس لدي قائمة بالأشياء التي أريد فعلها قبل الموت. منذ سن الخامسة عشرة، أمنيتي الصادقة الوحيدة في الحياة كانت أن أصبح كاتبة. بدأتُ بكتابة الشعر في سن المراهقة، متأثرة كثيرًا بروبرت لويل[١]، الذي كنا ندرس شعره حينها. كنتُ واقعة في غرام جيوف بيج، معلم اللغة الإنجليزية، الذي كان يتلو لنا شعر

(١) يعد روبرت لويل Robert Lowel (١٩١٧-١٩٧٧) من أهم الأصوات الشعرية الأمريكية في القرن العشرين. حائز على البوليتزر، وعرف عنه الكتابة بأساليب وتقنيات متنوعة، مع التركيز على البعد الذاتي والسيري في نصوصه. [المترجم]

لويل في الفصل بتشدقه المقتصد. كان سماعي صوته يمس شغاف قلبي ودخلتُ في نوع من الهذيان أملى عليّ أن أسهر الليل وأخربش نصوصي الموسومة بتأثير لويل الواضح، مقتنعة أنني، حسب ترتيب الكلمات، قد عثرتُ على موهبتي الحقة. بعد ذلك انتقلتُ من الشعر إلى كتابة السيناريو، ومن ثم الكتابة للأطفال، وأخيرًا كتابة الرواية. نشرتُ روايتين ومجموعة من القصص القصيرة. لم تكن مسيرةً مهنيةً خارقة، على الرغم من أنني وفقتُ في الحصول على عدد من المعلمين المميزين والأصدقاء على امتداد تلك المسيرة، بالإضافة إلى بعض المتابعين الأوفياء. إذن، وبهذا المعنى، فإنني أعدُّ نفسي محظوظة. أما ثروتي الحقيقية فقد كانت تكمن في اكتشافي ما أحبُّ فعله في مرحلة مبكرة من حياتي. إنها مصدر هنائي، ذاك الشيء الذي يُسمّى الكتابة، ولقد كانت كذلك منذ كنتُ لا أزال على مقاعد الدراسة. ليس فعل الكتابة وحده ما يبث فيّ البهجة، بل كل شيء يصاحبها، وكل عادات العقل.

الكتابة، حتى وإن كنتَ لا تقوم بها في أغلب الأحيان إلا في ذهنك، تشكّل العالم، وتجعله ممكن الاحتمال. حين كنتُ على مقاعد الدراسة، أدهشتني قدرة الشعر على استبعاد كل شيء فيما

عدا القصيدة ذاتها، أن تجعل بضعة أبيات من الشعر تخلق عالمًا كاملًا. الكتابة للأفلام لا تختلف عن ذلك. إيما تومسون[1] قالت ذات مرة إن كتابة سيناريو مثل محاولة ترتيب بُرادة الحديد المتناثرة. يتوجب عليك أن تجعل الحقل المغناطيسي قويًا جدًا حتى يفرض نظامه الخاص ويمسك بتلابيب عالم السيناريو في قبضته المحكمة المشوقة. في الرواية يمكنك أن تكون أحيانًا أقل تنظيمًا، ولكن في معظم الوقت أنت تختار من تحيّد من عالمك الروائي لتجعله يقف في وجه الفوضى. وهذا ما أفعله الآن، في هذا الكتاب: إنني أصنع شكلًا لموتي، حتى أتمكن أنا والآخرون من رؤيته بوضوح. وأنا أجعل من الموت أمرًا ممكن الاحتمال بالنسبة لي.

لست أدري أين كان من الممكن أن أكون لو لم يكن بإمكاني القيام بهذا العمل الغريب. لقد أنقذ حياتي مرات عديدة على مر السنين، وما زال يفعل ذلك الآن. لوهلة من الزمن جسدي يتوجه

---

(١) إيما تومسون Emma Thompson (مواليد ١٩٥٩) هي ممثلة بريطانية وكاتبة سيناريو وناشطة ومؤلفة وممثلة كوميدية، وهي واحدة من أكثر الممثلات شهرة في بريطانيا. حصلت على عديد من الجوائز، منها جائزتا أوسكار. [المترجم]

نحو الكارثـة، وعقلي في مـكان آخر، متركزًا علـى هذه المهمة المصيرية الأخرى، وهي أن أقول لكم شيئًا ذا مغزى قبل أن أرحل. لأن سعادتي لا تُضاهى حين أكتب، أو أفكر في الكتابة، أو أنظر إلى العالـم بوصفي كاتبة، وقد كان الأمر كذلك منذ البداية.

إن كان لدي طموح آخر إبان نشأتي فقد كان ذلك هو السفر. وقد سـافرتُ كثيرًا، بدءًا من رحلات الطفولـة التي كان يقودها والدي المشّـاء، ثم بعد ذلك وحدي، وبعدها مع زوج مصاب بنفس شهوة الحب والسفر مثلي. وإن كان هناك ما يستحق الذكر، فقد ارتحلت كثيرًا، لدرجة أنني أحيانًا أحسد الناس الذين ظلوا في نفس المكان طوال حياتهم وألقوا فيه بجذورهم. ألقي باللائمة في حالة عدم الثبات على والدي. كان طيارًا وكان أسعد ما يكون حين يمتطي متـن الفضـاء، دون أن يكون هنا أو هنـاك. وما إن يحط على الأرض حتى يشعر أنه واقع في فخ. كانت حالة سفره المتواصل المؤثرَ الأكبرَ على طفولتي. كان يتنقل باستمرار، من وظيفة إلى وظيفة، ومن مدينة إلى مدينة، ومن بلد إلى بلد. بالنسبة لي كانت تلك طريقة طبيعية للحياة. كنت أستمتع كثيرًا بالتغيير المستمر، وبالإثارة، وبتحدي التكيف مع أوضاع جديدة. جعلني ذلك أتحلى بالمرونة والخفة. ولو كان هناك من ثمن لذلك كله،

فلم يكن ذلك ليعنيني، على الأقل ليس إلى أن انفرط عِقدُ الزواج بين والديّ بأثرٍ من التوتر.

وفور استطاعتي لذلك، بدأتُ السفر وحدي. لم يكن ثمة غرض محدد في ذهني، فقط أن أرى ما هو متاح. ما زلت أستطيع تذكر الحقيبة القماشية الخضراء التي ابتعتها لأول رحلة أسافر فيها وحدي. كانت محكمة النسج قوية، في استجابة للنصيحة التي طالما رددها والدي بضرورة أن يسافر المرء بأخف الأمتعة. كنت ذاهبة إلى إنجلترا، مثل عديد من أبناء جيلي، منجذبين إلى بلد كنا نظن أننا نعرفه من خلال قراءتنا عنه ومشاهدتنا له في التلفزيون. ولكن السفر، بالإضافة إلى كونه مصدرًا للمتعة، يشكّل عملية من الإحباط، ويضع توقعاتك بإزاء واقع شديد الاختلاف. وأثناء ركوبي القطار من مطار هيثرو إلى لندن، رأيتُ أماكن عارية من كل ما هو جذاب، بالكاد تتنفس تحت سماء كابية، وشعرتُ بحالتي المعنوية تهوي. لم تكن خيبة أمل على وجه الدقة، بل هي إدراك أنني، بمغادرتي للوطن، قد استعضتُ عن أحجيةٍ بأخرى.

ومن بين كل رحلاتي، كانت أكثرها متعة هي تلك التي سافرتُ فيها إلى أماكن لا أعرف عنها شيئًا. على الأخص رحلتي الأولى

إلى اليابان عام ١٩٨٢. لم تكن لدي أفكار مسبقة عن المكان فيما عدا إعلانات السفر التي تصور براعم الكرز والقطارات الفائقة السرعة. وصلتُ في وقت متأخر من الليل، وحطت طائرتي في مطار ناريتا، الذي كان حينها محاصـرًا من الفلاحين الذين يعيشون بالجوار في احتجاج على توسّعه. ولكنني لم أكن أعرف ذلك، لذا لم تكن لدي فكرة لماذا يُحاط المطار بالأسلاك الشائكة وتقوم على حراسته شرطة الشغب الذين يرتدون دروعًا على طريقة الساموراي. حدّقتُ من نافذة الحافلة، مذهولة، متشربة المشهد بكل تفاصيله المدهشة، محاولة استيعاب ما يمكن أن يجري. كان محضَ تخمينٍ، كله محض تخمين، وقد ظل الأمر كذلك خلال الأيام والأسابيع التالية، وأنا أعاني مع هذه البلاد غير المألوفة إلى أقصى حد، امبراطورية العلامات هذه، كما أطلق عليها رولان بارت محقًا. هل كنتُ أقرأ العلامات بشكل صحيح، أم أنني كنتُ أخبط خبطَ عشواء؟ كان ثمة مسائل حياتية حقيقية حين تتعلق المشكلة بالوصول إلى الوجهة الصحيحة في خط سفر قطارٍ ما، أو في الخروج من إحدى محطات القطارات الأرضية في المخرج الصحيح.

لم أفقد شهوتي للترحال والسفر في اليابان أبدًا. سافرتُ في

أرجاء البلد مرات عدة منذ الرحلة الأولى ومازلتُ أشعر بالدهشة بالمشاهد والأصوات والروائح: الغمامة السُكّرية المنبعثة من دخان الفحم متصاعدة من متجر الأنقليس[١] المشوي، وبخار الحساء الذي تتنشقه مع طبق الرامن[٢]، جمال قطع القش المنسوجة في حُصُر التاتامي[٣].

ما أريد قوله هو أنني سافرتُ كثيرًا، وحشدتُ كثيرًا من الذكريات الغالية التي قنعتُ بها. لن تستطيع أبدًا أن تذهب إلى كل مكان وأن ترى كل شيء. وحتى لو فعلتَ ذلك، يراودني الشك أنك ستصل إلى مرحلة تتشبع فيها بالسفر ويحدوك الحنين للعودة إلى الوطن. لأن المتع التي يمكن أن تحظى بها في الوطن يمكن أن تعادل المتع التي تنالها في السفر، وثمة ثمن لا بد من

(١) الأنقليس أو الأنكليس هي نوع من أنواع الثعابين المائية، تتغذى على الأسماك، ومنها ما يتغذى على الديدان الموجودة في الأرض. تنتشر هذه الثعابين في منطقة أمريكا الشمالية وأوروبا. [المترجم]

(٢) الرامن ramen هو طبق ذو شعبية كبيرة في اليابان، وهو عبارة عن نوع من حساء المعكرونة. [المترجم]

(٣) التاتامي Tatami هي حصيرة يابانية أرضية يتم صناعتها عن طريق نسج سيقان الأعشاب، ويتم مدها في غرف المنازل اليابانية، والفنادق والمطاعم ذات الطراز الياباني، والمعابد البوذية، وغرف الشاي. [المترجم]

دفعه للرغبة في أن تكون في كل الأمكنة وفي لامكان، مثل أبي. حين لم يعد باستطاعته الطيران، ضاع أبي. لم تكن لديه اهتمامات أُخر، لا شيء يبقيه على الأرض. قيل لي أنه خلال أيامه الأخيرة المربكة تذمر حول سجلات سفره التي ضاعت منذ زمن طويل. وفي بعض الأحيان كان ينتابه قلق شديد حول مكانها لدرجة تدعو لتهدئته بالعقاقير.

قائمة الأشياء التي يود المرء فعلها قبل الموت توحي ضمنًا بنقص ما، بحشد من الرغبات أو المطامح التي لم تتحقق، بقلق مؤداه أنك لم تفعل ما يكفي بحياتك. إنها توحي بأن مزيدًا من التجربة أفضل، رغم أن عكس ذلك قد يكون صحيحًا بقدرٍ متساوٍ. ليس لدي قائمة بالأشياء التي أودُّ فعلها لأن تذكَّرَ الأشياء التي فعلتها يبث في نفسي الرضى، بدلًا من أن أتوق لما لم أفعله. وأيًا كان ما تضمه القائمة من أشياء، فإنني أخمن أنها غير مناسبة لي، وهذا يمنحني إحساسًا بالرضى والسكينة، نوع من الصابورة[1] وأنا أعد العدة للمضي في رحلتي الأخيرة.

أجل، لقد فكرت في الانتحار، وما يزال، للأسباب التي ذكرتها،

(١) الصابورة ballast أو مياه الاتزان غير النظيفة هي المواد المستخدمة لتوفير الاستقرار للمركبة أو الهيكل. [المترجم]

محطَّ إغراءٍ دائم. لو أن القانون في أستراليا يسمح بالمساعدة في الانتحار لكنتُ بصدد وضع الخطط الآن لإنهاء حياتي. وما إن يحل اليوم، سأدعو أسرتي وأصدقائي المقربين للمجيء وسنشرب معًا شراب الوداع. سأشكرهم جميعًا على كل ما فعلوه من أجلي. سأخبرهم كم أحبهم. أتخيل أنه ستكون هناك دموع غزيرة. وآمل أن يكون هناك بعض الضحك. ستكون هناك موسيقى تُعزف في خلفية المشهد، شيء من الموسيقى التصويرية لأيام شبابي. وبعد ذلك، حين يحين الوقت الملائم، سأقول لهم وداعًا وأتجرع دوائي، موقنة أن الحفلة ستستمر بدوني، بأن الجميع سيمكثون لبعض الوقت، ويتحدثون معًا أكثر، وأن يكونوا معًا لمؤازرة بعضهم بعضًا طالما رغبوا في ذلك. وكشخص يعرف أن نهايته قادمة، لا أستطيع التفكير في طريقة أفضل للخروج من الحياة. كما لا أستطيع أن أستوعب لماذا يكون هذا النوع من الموت الإنساني والجليل محرمًا بقوة القانون.

كلا، لن يكون في أخذ الأمر بيدي خرق للقانون. الصحف ملأى بالخيارات المتاحة: الشنق، السقوط من مكان شاهق، القفز في وجه قطار مسرع، الغرق، تفجير نفسي، إشعال النار في جسدي، ولكن في حقيقة الأمر لا يوجد من بين هذه الخيارات

ما يروق لـي. مرة أخرى أنـا مقيدة بفكرة الأضـرار المصاحبة، بالصدمة التي ستحل على أسرتي، بالأذى الذي سيقع على من سيقع على عاتقه إخماد النيران، أو إخراج الجثة من الماء، أو التقاط قطع الدماغ من على الرصيف. حين تحلل كل السيناريوهات الممكنة للانتحار، فـلا يوجد من بينها ما هـو جميل. وهذا هو سـبب الذي يدفعني لتأييد المسـاعدة في الانتحار، لأنه، إذا ما حورنا مقولة تشرشل، أسوأ طرق الموت، فيما عدا كل الخيارات الأخرى.

كلا، لم أصبح متدينة؛ ولـم أخض تجربة اعتناق عقيدة بعينها مؤخرًا. وإن كان ذلك يعني أنني سأذهب إلى جهنم مباشرة فور موتي فليكن ذلك. إحدى مشاكلي مع الدين كانت على الدوام هي فكرة أن الصالحين سيُخلّصون وأن من عدا ذلك ملعونون. أليس في ذلـك تمثيل لأقصى درجات المنطـق الديني المرتبط بنموذج «نحن» و«هم»؟

ربما تكون حالة لعدم افتقادك ما لم يكن لديك من قبل على الإطلاق. لم أحـظ بتعليم ديني إبان نشـأتي. كنتُ أعرف بضع حكايات من الإنجيل من حضوري القصير في مدرسة الأحد، ولكن تلك بدت على مسـتوى واحد مع الحكايـات الخرافية،

وإن تكن أقل إثارة للاهتمام. القداسة المضفاة عليها تنفرني. كنتُ أفضل الأجواء الأكثر قتامة لحكايات الأخوين غريم[1]، التي قدمتْ عالمًا لا خلاص فيه، حيث تحدث الأشياء السيئة بلا سبب، ولا تتم معاقبة أحد. حتى الآن أفضل هذه الرؤية للواقع. لا أعتقد أن الله لديه خطة لنا. أعتقد أننا مخلوقات بادعاءات شبه إلهية ولكننا حيوانات بطبيعتنا، وأننا، من بين كل الحيوانات التي جابت الأرض، أكثرها خطرًا.

السرطان يضرب بشكل عشوائي. إن لم تمت بالسرطان فستموت بشيء آخر، لأن الموت قانون من قوانين الطبيعة. وبقاء المخلوقات يعتمد على التجدد المستمر، إذ يمهد كل جيل الطريق للجيل الذي يليه، ليس مع نشوء أي تطور في العقل، ولكن بما يحقق مصالح البقاء المحض. إذا كانت هذه هي الحياة الأبدية فإنني مؤمنة. ما لم أؤمن به أبدًا هو أن الله يراقبنا، أو أن

---

(١) الأخوان غريم Brothers Grimm هُما شقيقان ألمانيّان أَحدُهما يُدعى يعقوب والآخر فيلهام. كانا أكاديميّين ولُغويّيَن وباحِثين ثقافيّيَن وكاتِبين، قاما معًا بجمع القصص الشعبيّة الألمانيّة وطبعها في كتاب واحد خلال القرن التاسع عشر. وقد اشتهرت هذه القصص كثيرًا وتُرجمت إلى لغات عالمية كثيرة. [المترجم]

لديه اهتمامًا شخصيًا بحالة أرواح كل منا. في حقيقة الأمر، إن كان الله موجودًا حقًا، فلا بد أن يكون إلهًا مكرسًا للامبالاة هائلة، وإلا، كما يقول ستيفن فراي[1]، لماذا يحلم بسرطان العظام لدى الأطفال؟

أجل، أنا خائفة، ولكن ليس طوال الوقت. حين شُخّصتْ حالتي في بادئ الأمر أصبتُ بالذعر. لم تكن لدي أدنى فكرة أن الجسد يمكن أن ينقلب على ذاته ويستضيف عدوه. لم يسبق لي أن أصبتُ بمرض عضال طوال حياتي؛ والآن صرتُ في مواجهة مباشرة مع فنائي. مرتْ بي لحظة رأيت فيها جسدي في المرآة كما لو كانت أولَّ مرة. وبين عشية وضحاها أصبح جسدي غريبًا عليّ، المخرب لكل آمالي وأحلامي. لم يكن بإمكاني تفهم الأمر، وكان مرعبًا، ولقد بكيتُ وانتحبتُ قائلة: «لا أستطيع الموت. ليس الآن. ليس الآن».

ولكنني ألفتُ الموت الآن. أصبح أمرًا اعتياديًا ومبتذلًا، شيئًا يقوم به كل امرئ، دونما استثناء، عاجلًا أم آجلًا. وإن كنتُ خائفة

---

(١) ستيفن فراي Stephen Fry (١٩٥٧) هو ممثل ومخرج وكاتب سيناريو إنجليزي بدأ مسيرته الفنية عام ١٩٨١ واشتهر بأدواره الكوميدية. [المترجم]

من أي شيء فهو من الموت بشكل سيء، أو أن أتورط في إجراء يطيل حياتي دون جدوى. لقد أعددتُ جميع الضمانات، وأتممتُ التعليماتِ الصحية المتقدمة وأعطيتُ نسخة منها إلى أخصائي العناية التلطيفية. لقد حرصتُ على إيضاح الأمر في حواراتي، معه ومع أفراد أسرتي على حدٍّ سواء، أنني لا أرغب في تدخلات لإنقاذ الحياة في النهاية، لا شيء مصمم لتأخير ما لا مفر منه. وعدني طبيبي بتلبية رغبتي، ولكنني لا أستطيع كبح جماح قلقي، إذ لم يسبق لي الموت من قبل. لذا فإنني أصاب أحيانًا بحالة توتر مما يصاب به المبتدئون، ولكن ذلك سرعان ما يمضي.

كلا، ليس ثمة خير في الموت. إنه لأمر محزن فوق ما يمكن تصديقه. ولكنه جزء من الحياة، وما من مهرب منه. وما إن تستوعب هذه الحقيقة، يمكن أن ينتج عن ذلك أشياء جيدة. لقد أمضيتُ معظم حياتي مؤمنة أن الموت شيء يحدث للآخرين. تخيلت في حالتي المضللة أن لدي وقتًا غير محدود لألهو به، ولذلك تعاملت مع الحياة بخفة ولم أكبّد نفسي العناء. على الأقل هذا تفسير واحد يوضح السبب الذي جعلني أستغرق وقتًا طويَلًا لأكتب روايتي الأولى. كانت هناك أخريات. كنتُ أحاول كتابة قصة والديّ لأعوام، مدونة ملاحظات عن الشخصيات،

وواضعة الخطوط العريضة للحبكة، شـارعة في محاولة فاشلة تلو أخـرى. ولكنني مـرارًا وتكرارًا فشـلتُ في نفـخ الحياة في الرواية، مكبلة بحقيقة أن والديّ كانا على قيد الحياة ليقرآ ما قد كتبته.

ولما توفي والداي لم يكن هناك ما أقلق بشأنه. كان بوسعي أن أقول ما أوده عنهما دون أن أجرح مشاعرهما. وما إن علمتُ بأن منيتي اقتربتْ، لم يكن بوسـعي اختلاق الأعـذار. إما إن يحدث ذلك الآن أو ألا يحدث أبدًا. لن أقول إن ذلك سهّل علي من كتابتي لروايتي، *أنا والسيد بوكر Me and Mr Booker*، ولكنه حفزني. تلك كانت فرصتي الوحيدة لأن أترك للأجيال القادمة عملًا يكون لي حقًا. لسنوات عملتُ في كتابة السيناريوهات، ولكن تلك كانت مهمة تعاونية. وليس من المعتاد أن تتوارى السيناريوهات في ظلمة الأدراج، حتى لا ترى مرة أخرى أبدًا. أعرف أن الروايات تختفي أيضًا، ولكنها على الأقل تبقى موجودة، بوصفها أعمالًا متكاملة، سواء أكانت مطبوعة أم إلكترونية، كأشياء ملموسة، وذاك كان دائمًا ما يغريني فيها. الكتاب قائم بذاته. السيناريو مجرد اقتراح لقصة ما، ولكن الرواية هي الشيء الحقيقي ذاته.

كان شعورًا لا يشبهه شعور آخر، في أواخر ٢٠١١، أن أمسك

بنسخة من روايتي الأولى في يدي. حين أرسل ناشر باتريشا هايسميث[1] النسخ الأولى من روايتها الأولى إليها *غرباء في قطار Strangers on a Train*، أصابتها الدهشة من المساحة التي شغلتها. بدا مفرطًا في الصفاقة أن تصنع شيئًا يشغل مساحة في العالم. أعرف ما قصدته هايسميث. لقد جعلتُ من نفسي عرضة لسهام النقد أخيرًا، مدعية أحقيتي بأن أعامل بجدية ككاتبة، وهاهنا في يدي الدليل. الآن، قلت لنفسي، أستطيع الموت سعيدة.

أجل، لدي أشياء ندمت عليها، ولكن ما إن تبدأ في إعادة كتابة ماضيك فإنك تدرك أن مواضع فشلك وأخطائك هي ما يحدد مَن أنت. وإذا ما وضعتها جانبًا فلن يبقى منك شيء. ولكنني أتساءل بالفعل أين كان يمكن أن أكون الآن لو أنني اتخذت قرارات أخرى، لو أنني كنتُ أكثر جرأة، وأكثر ذكاء، أو على ثقة بما أريده وكيف أحققه. وكما كان الحال، بدا أنني كنتُ أتعثر،

---

(١) باتريشيا هايسميث Patricia Highsmith (١٩٢١-١٩٩٥) هي روائية وكاتبة قصة أمريكية اشتهرت من خلال تخصصها في الرعب والإثارة النفسية، بما في ذلك سلسلة من خمس روايات بطلها شخصية توم ريبلي. [المترجم]

وأعيش حياتي كيفما اتفق. وبالنظر إلى الوراء، بوسعي استخراج شيء من المعنى من حياتي، ولكنها في ذلك الوقت كانت ارتجالية ومؤقتة، وهي أكثر اعتمادًا على الحظ من اعتمادها على التخطيط أو القصد.

وعلى الرغم من ذلك فإننا، كما يقول المحلل النفسي وكاتب المقالة البريطاني آدام فيلبس، مسكونون بالحياة التي لم تعش، بالاعتقاد أننا فوتنا شيئًا مختلفًا وأفضل. فكرتي الخيالية المفضلة هي عن الحياة التي كان بإمكاني صنعها في باريس لو أنني اخترت أن أبقى هناك بدلًا من العودة إلى الوطن كما فعلت. كنت في الثانية والعشرين. هربتُ. كان يفترض بي أن أكون في أكسفورد لنيل شهادة ماجستير في التاريخ، ولكن بعد بضعة أسابيع في الفصل الدراسي الأول قررتُ ألا أواصل. اكتشفتُ أن أكسفورد مخيفة ومملة معًا. مشرفي الدراسي كان خبيرًا في التاريخ الدستوري لنيو ساوث ويلز، وكان حريصًا أن أساعده في بحثه. كان يرى أنني أعاني وقد كان ذا نية طيبة، ولكن عرضه بدا كعقاب أكثر من كونه مدَّ يدٍ بالمساعدة، فما كان مني إلا أن راوغت واختفيت.

كانت لدي دعوة قائمة من قريب لي وزوجته لزيارتهما في

باريس، لذا فقد سحبت كل نقودي من البنك واشتريت تذكرة. أتذكر وقوفي على سطح عبّارة مغادرة فولكستون في أصيل نوفمبر عاصف، وأنا أفكر أن حياتي قد بدأت للتو، وأن هذه هي بداية مغامرتي العظمى. لطالما كان لفرنسا جاذبيتها الساحرة بالنسبة لي، منذ حصص اللغة الفرنسية في المرحلة الثانوية مع السيد كولينز العاجز. كان يجعلنا نرسم خرائط للبلد تظهر كل الأنهار الرئيسة، والتضاريس الجغرافية والمنتوجات الزراعية. بدت أرضًا غزيرة الخيرات؛ عاهدتُ نفسي على الذهاب إلى هناك يومًا ما وأن أراها بنفسي. وكنوع من الإعداد للرحلة أعطى السيد كولنز لكلٍّ منا اسمًا فرنسيًا. واسمي كان جين. اعتبرت اسمي الجديد بمثابة الدعوة لتبني شخصية جديدة بالكامل في لغة جديدة، شخصية أكثر ثقافة وخبرة بشؤون الحياة والناس مني، فتاة على معرفة بموضع قدميها. كان ما يجتذبني هو احتمالية إعادة الابتكار - تمامًا كما لا تزال الآن. وما إن وطأت قدماي التراب الفرنسي أحسست بأناي العليا من أيام المرحلة الثانوية تعود للحياة من جديد. جين ابتاعت علبة سجائر غلواز للاحتفال ودَخنتها في القطار، أثناء قراءتها لنسختها من رواية مارغريت دوراس *العاشق The Lover*. لو كان فقط بإمكاني أن أكتب

هكذا، قالت لنفسها، نابذة على الفور شكوكها الحائمة حول التخلي عن الحياة الأكاديمية.

التقاني قريبي في شارع موفيتاغ ورافقته وهو يشتري مكونات العشاء. كثير من الأجبان، والنبيذ، والفطائر، والمشهيات. كثير من الأطعمة البحرية، التي بدت كلها طازجة وبراقة. وكثير من الجمال، في الوجوه العابرة، في اللغة الحسية، في المكتبات التي تحف بالتل. كنت بالكاد أستطيع التنفس من السعادة. كان بإمكاني البقاء لو أنني أردت ذلك. كنتُ مفلسة، ولكن كان بوسعي الحصول على عمل لو حاولت. كان قريبي يدرس الإنجليزية، أو أفترض وجود وكالات للمربيات أستطيع الاتصال بها. كانت لغتي الفرنسية سيئة، ولكن كان بإمكاني تعلم اللغة. وفي حقيقة الأمر، بعد يومين أوثلاثة أيام سعيدة، عدت إلى أكسفورد وبحثت إمكانية التحويل إلى كورس جامعي في الفرنسية والإسبانية، لأكتشف أن ذلك غير ممكن بالاعتماد على مواردي الشحيحة. كان يمكنني أن أطلب قرضًا من أمي، ولكنها كانت مدينة بالفعل بسبب طلاقها. لذا فقد تخليت عن حلمي بالبقاء في باريس وعدتُ إلى الوطن، متخيلة فرصة أخرى قد تأتي بيوم أعود فيه مرة أخرى، وأنسلُّ ثانية في جسد جين وأكتب رواياتي المدهشة في العليّة الدائرية في الشارع الخامس. لم يحالفني

الحظ بطبيعة الحال. ولكن تبين أن ذلك كان من صالحي، لأن مجالات أخرى ظهرت سريعًا، كما تفعل، وفرص لإعادة ابتكار ذاتي بطرق ما كان لي التنبؤ بها.

المشكلة مع الاستغراق في التفكير الحالم هي أنك تفترض دائمًا أنك تعرف كيف ستكون الحياة التي لم تعشها. الحياة الأخرى أكثر أهمية وذات مغزى أكبر. وهي خالية من الإخفاقات والمنغصات على نحو لا يصدق. هذا الانفصام ما بين الحلم والواقع يمكن أن يكون السبب في حدوث الاستياء بعض الأحيان. ولكنني لم أعد أعاني من القلق. وبتُّ الآن أرى حياتي التي عشتها بوصفها الحياة الوحيدة، القائمة بذاتها، والمشبعة بفردانيتها. أما ما يُعد حماقة صرفًا فهو أن أشعر بالحسد إزاء حياة ذاتي البديلة، تلك التي مكثت في باريس، أو تلك التي أصبحت خبيرة في التاريخ الدستوري لنيو ساوث ويلز.

كلا، لا أؤمن بحياة أخرى بعد الموت. من التراب إلى التراب، ومن الرماد إلى الرماد يختصر الأمر بالنسبة لي. نأتي من العدم ونعود إلى العدم حين نموت. هذا هو أحد معاني الدائرة التي يحبَها الخطاطون في اليابان، محض جرة قلم واحدة واضحة، تبدأ من البداية وتنطلق عائدة إليها في حركة دائرية مائلة. يقول

ت. س. إليوت: «في بدايتي نهايتي. من النيران القديمة رماد/ ومن الرماد تراب/ هو الآن أجساد، ونَجْو وفراء،/ وعظام بشر وحيوان، وسوق سنابل وأوراق».[1] حين قرأت *رباعيات أربع* *Four Quartets* في المدرسة كانت بمثابة الكشف. كان العالم كما وصفه تمامًا وليس أي شيء آخر، مكان يقيم فيه الجمال والدمار معًا وغالبًا لا يمكنك أن تدرك الفرق بينهما.

حين سألتني الراهبة البوذية التي تزورني أحيانًا إن كنتُ أؤمن بالحياة بعد الموت أجبتها بقولي إنني أعتقد أننا نبقى أحياء في ذاكرة الناس الذين كانوا على معرفة بنا، وأنه بعد رحيل الأصدقاء والأسرة فإننا سنصبح طي النسيان. أخبرتها عن المقابر في مدينة البرسلان اليابانية آريتا، حيث أشترينا زوجي وأنا بيتًا هناك. يعود تاريخ المدينة في الوثائق الرسمية إلى أربعمائة عام مضت، ولكن يفترض أن بعض الفلاحين كانوا يقيمون فيها قبل وصول الخزافين. والآن وقد تجاوزت آريتا ذروة ازدهارها، أصبحت مكانًا يضم من الأموات أضعاف ما يضم من الأحياء، لذا فأيما طريق سلكت في شوارعها الضيقة الملتفة فسرعان ما تصادف مقابر تعج بنصب

---

(١) من قصيدة رباعيات أربع، وتحديدًا من المقطع الذي يحمل عنوان «إيست كوكر»، بترجمة توفيق صايغ. [المترجم]

تذكارية للموتى. من السهل معرفة أي منها لا يزال يُتذكر، لأن بعض القبور محافظ عليها بشكل جميل وغالبًا ما تُزار. كما أنه من السهل معرفة أيٍّ من الموتى قد نُسي تمامًا، بالنظر إلى حالة قبورهم المتهدمة التي أصبحت مرتعًا للأعشاب الضارة. في بعض الأركان ستعثر حتى على أحجار تذكارية ملقاة كيفما اتفق، وقد هُمشتْ بطريقة تخلو من الاحترام لفسح المجال للقادمين الجدد.

أخبرتُ الراهبة أن شِن، وهو رسام، قرر أن ينتقل إلى آريتا لأنه أحب فكرة الرسم على البرسلان بدلًا من المواد سريعة العطب مثل الورق والكانفاس. وآريتا ملأى بجذاذات البرسلان في كل مكان تدير بصرك فيه. تستطيع في كل ما يحيط بمواقع الأفران القديمة التقاط قطع من البرسلان الأزرق والأبيض، والأكواب، وأباريق الشاي. كان قعر النهر الذي يجري عبر المدينة مرصعًا بقطع البرسلان المرمية، وأجزاء من الأباريق التي تصدعت تحت اللهب أو اكتشف أنها معيبة بطريقة أخرى فقذف بها ببساطة من نوافذ الورش إلى الماء. يحب شِن أن يتخيل أنه بعد أربعمائة عام مَن الآن قد يتم العثور على جذاذات من عمله وتجمع على يد مسافر بدافع الفضول، تمامًا كما يحب هو أن يحفر الأرض لجمع

قطع الأعمال التي رسمها أسلافه. بهذه الطريقة، يقول، سيكون قد أدرك قدرًا من الخلود. أقول إنني أحس بنفس الشعور تجاه عملي. أحب أن أفكر أن شخصًا ما، بعد وقت طويل من رحيلي، قد يقرأ كتابًا أو مقالًا كتبته في إحدى أواخر المكتبات المتبقية أو الأرشيف الإلكتروني فيكون لذلك أثر عليه بطريقة ما.

تستمع الراهبة بتأدب إلى نظرياتي عن الحياة الآخرة ولكنني أدرك أنها لا توافقني الرأي. ينتابني الإحساس أن الأشياء بالنسبة لها ليست بالبساطة التي أصفها بها. لا أدعي أنني أفهم عقيدتها الإيمانية ولكنني أتخيل أنها تفترض وجود مكان آخر، منفصل عن هذا المكان. وإلا فما الذي تعنيه حين تصف الروح وهي تغادر الجسد إلى «الأثير»؟ هذه هي المرحلة التي يصبح الدين فيها بالغ التعقيد بالنسبة لي، أو ربما لا تكون اللغة كافية لوصف ما لا سبيل لوصفه.

أجد نفسي أميل أكثر إلى الطرق العادية التي نخادع فيها الموت. ربما يكون ذلك عبر القوة الموحية للأشياء التي نتركها وراءنا، أو ربما تكون في هيئة كلمات، أو إيماءة رأس، أو أسلوب في الضحك. كنتُ أتناول العشاء في ليلة من الليالي مع بعض أصدقائنا القدامى. كانوا قد التقوا بوالدتي مرات عدة، حين كانت

على ما يرام، وقبل أن يتمكن منها المرض. حدقت الزوجة بي طويلًا، وقالت: «صرتِ تشبهينها أكثر فأكثر».

شعرتُ لوهلة أن أمي قد شاركتنا، أن وجودنا معًا استحضر وجودها على المائدة. كان شعورًا عابرًا. ولكن مع ذلك لا أستطيع تخيل حياة أخرى تتكون من أكثر من هذه الزيارات القصيرة بين حين وآخر مع الأحياء، هذه الذكريات التي تأتي دونما طلب من أحد ومن لا مكان، ثم تختفي مرة أخرى في ظلمات النسيان.

لا، أولوياتي تبقى كما هي. العمل والأسرة. لا شيء آخر شكّل أدنى أهمية بالنسبة لي. قد يبدو غريبًا أن تدعي كاتبة ذات نتاج قليل مثلي أن العمل كان هاجسًا شاغلًا لها طوال حياتها، ولكنه حقيقي. حين لم أكن أمارس الكتابة بالفعل كنت أتهيأ للكتابة، أراجع الأفكار، وأقرأ، وأراقب الحياة والشخصية، وأتعلم من الكتّاب الآخرين. كما تقول نورا إفرون[1] دائمًا، كل شيء محاكاة. وإن كنتُ أبطأ من بعضهم في العثور على النجاح، فليس

(١) نورا إفرون Nora Ephron (١٩٤١-٢٠١٢) هي كاتبة سيناريو وروائية ومنتجة ومخرجة ومدونة أمريكية رشحت لنيل جائزة الأوسكار ثلاث مرات. [المترجم]

ذلك بسبب أنني لم أكن أحاول. كنتُ أحاول وأفشل طوال الوقت. هذا ما أفعله الآن وآمل أنني أفشل بطريقة أفضل. لقد أجلتُ توظيف موتي كمادة للكتابة لوقت طويل، بسبب رئيس هو أنني لم أستطع العثور على النبرة الملائمة. ولستُ متأكدة أنني قد عثرتُ عليها حتى هذه اللحظة.

القول بإن الأسرة كانت هي الأولوية الرئيسة الأخرى في حياتي يُعد نوعًا من التقليل من شأن هذا الأمر. الزواج، والأطفال، والكارثة بأجمعها كما كان زوربا يسميها. أن تصبحي أمًا يعني أن تميتي ذاتك بطريقة ما. بعد أن رزقت بأبناء لم أعد فردًا منفصلًا عن بقية الأفراد. لقد رَشَحْتُ إلى جميع الأشخاص. أتذكر الذهاب لمشاهدة فيلم بعد ولادة نات ومغادرتي للفيلم بعد أول ما يشي بالعنف. لم يكن من المحتمل التفكير في الأذى الذي وقع. لم أكن أبدًا شديدة الحساسية من قبل، ولكن الآن أصبح هناك الكثير مما يتطلب الاهتمام. لقد أنجبتُ طفلًا. من الآن فصاعدًا وظيفتي الأولى هي أن أحميه وأربيه حتى يبلغ أشده، كائنًا ما كان الثمن الذي يتوجب عليّ دفعه. لم يكن ذلك خيارًا بل قانونًا.

هذا يجعل الأمر وكأنه مهمة أبعد ما تكون عن الأنانية،

ولكنها لم تكن كذلـك. فقد أخذتُ بقدر مـا أعطيتُ، وأكثر من ذلك. المباهج الاعتيادية لتنشئة الأطفال لا يُتحدث عنها غالبًا، لأنها غير مدهشـة ولا تترك أثرًا دائمًا، ولكنها أمدتني بالقوة لسنوات مع تقدم ابنينا في السن ونجاحهما، وما تزال تمدني بالقوة الآن. لا أستطيع إخفاء بهجتي بحقيقة أن ولديّ يحققـان النجاح فـي الوقت الذي تتدهـور فيـه حالتي. يبدو ذلك من المناسـب جدًا، وهي علامـة تأكيد بـأن مهمتي في الحياة قد اكتملت. إنه مثل ذلك اليوم حين التفت دان، وكان في الصف الرابـع الابتدائي، إليّ على مسـافة عشـرين ياردة من المدرسة وقال: «تستطيعين الذهاب الآن، يا أمي». علمتُ حينها أن الأيام التي كنا نمشـي فيها بصحبـة بعضنا بعضًا قد انقضت، وأنه مع مرور الوقت ستكون هناك علامات أخرى على كونـي أصبحـت فائضـة عـن الحاجـة، وسـتكون جلية وواضحة مثل هذا الموقف.

كلا، لسـت تعيسـة أو مكتئبة، ولكنني أشـعر بالغضب من حينٍ لآخر.

لماذا أنا؟ لماذا الآن؟ أسـئلة بلهاء لكن ذلـك لا يجعلني

أتوقف عن طرحها. كان يفترض بي أن أتحدى الإحصاءات وأن ألحق الهزيمة بهذا المرض بمحض قوة الإرادة. كان يفترض بي أن أحظى بعقد إضافي أكتب فيه أفضل أعمالي. لقد تعرضتُ للنهب!

أمور أبعد ما تكون عن العقل. كما لو أن أيَّ أحدٍ منا يملك التحكم في أي شيء. وإن ما يمنحني الشعور بالأفضلية هو أن أتقبل فكرةَ أنني أقف عاجزة أمام ما قُدّر لي، وأنني لأول مرة في حياتي أتخلص من جور الاختيار. بهذه الطريقة أضيع وقتًا أقل بكثير في الشعور بأنني استُهدفت أو خُدعت.

كما أخبرتُ الطبيبة النفسية، أعتمد على أصدقائي ليصرفوني عن أفكاري السوداء. ليس لدي الكثير من الأصدقاء، ولكن القلائل الذين تربطني بهم عُرى الصداقة في غاية اللطف معي، وفي غاية المراعاة والإفراط في القلق، بحيث سيكون من اللاعرفان لهم أن أنجرف إلى التعاسة والاكتئاب. ثم هنالك شِن، الذي أضيع من دونه. لقد كان طلق المحيّا ومحبًا؛ وأنا أدين له بما لا يقل عن سلامتي العقلية. وإذا ما حصل قطُّ أن أصبت بالاكتئاب أو التعاسة، فإنني أبذل قصارى جهدي لإخفاء الحقيقة عنه. وهو أقلُّ ما يمكنني فعله.

كلا، ليس من المتوقع أن أخوض مزيدًا من المخاطر في الحياة، الآن وقد عرفت أنني أحتضر. لست بصدد ممارسة القفز بالمظلات أو ركوب الطائرات الشراعية. لطالما كنتُ حذرة فيما يخص المخاطر الجسدية، وواعية بشكل خارق للطبيعة بكل الأشياء التي يمكن أن تحدث حين يقوم المرء بنشاط تكتنفه المخاطر. وللمفارقة، كان أبي هو من علمني أن أكون حذرة. لا أظن أن الطيران كان يلائم طباعه؛ فالمخاطر كانت تؤثر بشكل غير صحي على عقله وتجعله أميل للخوف، وسرعة الغضب، والكآبة. وفي نفس الوقت كان مدمنًا على متعة الطيران ولم يكن بوسعه التخلي عنه.

كانت مشاعره المتناقضة إزاء الخطر تصيبني بالارتباك حين كنت في طور النمو. لم يثبطني أبدًا من ممارسة الأنشطة الخطرة، وبدلًا من ذلك ملأني خوفًا حول العواقب المحتملة، وكانت نتيجة ذلك أنني لم أتقن أيًا من تلك الأنشطة. حين علمني قيادة السيارة، كان حريصًا على أن يوضح فكرة أنه لا يمكن الاعتماد على الآلة، وهو شيء لا بد أنه تعلمه خلال الحرب فيَ مدرسة الطيران، حيث يمكن للأخطاء أن تكون قاتلة. كان يحب فتح غطاء محرك السيارة قبل انطلاقنا، وكان يجري نوعًا

من التأكد من إجراءات ما قبل الطيران معي للتأكد من أن كل شيء حيث ينبغي أن يكون. تلك كانت دروسًا جيدة وقد أفادتني كثيرًا، ولكنني أتساءل إن كان نوعًا ما من الحماس لاقتحام المخاطر قد تقهقر لديّ كنتيجة لطرق التعليم التي كان يتبعها معي، وما إن لم تكن تلك هي نيته وهدفه. يدهشني أنني كنتُ سأصبح على غير هذه الحال لو أنه أخذني في جولة في واحدة من طائرات «تايغر موث» التي أحبها كثيرًا، وأراني ما الذي اجتذبه لعالم الطيران في المقام الأول، مركزًا على المتعة المجنونة أكثر من المخاطر.

يخاطب هارولد بنتر[1]، المحتضر بالسرطان زوجته بقوله: «*سأفتقدكِ كثيرًا حين أموت*». أعرف تمامًا ما يعنيه.

الإجابة القصيرة على سؤال ما الذي سأفتقده أكثر من كل شيء هو شِن، زوجي لواحد وثلاثين عامًا، ووجهَا ولديّ.

الإجابة الطويلة هي العالم وكل شيء فيه: الريح، الشمس، المطر، الثلج وكل ما تبقى.

---

(١) هارولد بنتر (١٩٣٠-٢٠٠٨) كاتب مسرحي وكاتب سيناريو ومخرج وممثل بريطاني، حائز على جائزة نوبل للآداب عام ٢٠٠٥. [المترجم]

وسأفتقد أن أكون قريبة لأرى ما سيحدث لاحقًا، كيف ستتكشف الأشياء، وما إن كان ولداي سيكونان محظوظين كما كنت.

ولكنني لن أفتقد الاحتضار. إنه بما لا يُقاس أصعب ما فعلته من الأشياء، وسأكون سعيدة حين ينتهي.

أحبُّ أن يتذكرني الناس بما كتبته. وكما حذر أحدهم ذات مرة، إذا لم تحك قصتك بنفسك، فسيحكيها أحد آخر.

ولكنني أدرك أنه ليس لي من الأمر من شيء بشأن الكيفية التي سيتذكرني بها الناس. من طبيعة الذاكرة أن يتذكر أشخاص مختلفون أشياء مختلفة، وأنه ما من شيء مما يتذكرونه سيكون قابلًا للتأكد منه أو حقيقيًا. هذه هي الحالة حتى فيما يخص الذكريات التي أستدعيها من حياتي، تلك الذكريات المتنافذة المتقلبة والمفتوحة للتأويلات المتناقضة. وإذا ما وظفتها في أعمالي، وهو ما أفعله غالبًا، فإن ذلك بغرض استخدامها في سياق سردي بعينه، وبهدف تشكيلها لغاية ما، لأن هذه هي الطريقة التي تصنع بها الرواية. وأثناء هذه العملية، أتوصل إلى قناعة فحواها أن النسخة المتخيلة

من ذاكرتي هي النسخة الحقيقية، أو أنها على الأقل أفضل منها. إنه إجراء يقصد منه خدمة الذات على نحو تام، أعلم ذلك، ولكن ذلك جزء من جاذبيته.

في نهاية المطاف إنها لنعمة كبيرة أن يُتذكر المرء، ولا ينبغي لنا أن نقلق كثيرًا حول كيف سيحدث ذلك ولماذا. جدتي لأمي توفيت قبل أن تتاح لي الفرصة لمعرفتها. ولكنني أتذكرها بوصفها امرأة موهوبة ذات طموحات أدبية عاجلها الموت قبل أن تحقق مطامحها - لأن هذا ما سمعته غالبًا من أمي. لم يفتني إدراك المغزى من القصة. كانت حكاية تحذيرية، وقد تملكتني، كما تملكت أمي. ولكنها في ذهني كانت قصة رومانسية أيضًا، خاصة في التفاصيل. جدتي كانت فتاة ريفية من «لونغريش»، في منطقة نائية من «كوينزلاند». عندما كانت بالكاد خارج المدرسة، تزوجت راعيًا يكبرها باثني عشر عامًا. كتبتْ شعرًا رعويًا bush poetry[1] نشر في بوليتين Bulletin،

---

(١) الشعر الرعوي Bush Poetry (حرفيًا: شعر الأجمة) هو نوع من أنواع الشعر المرتبط بالبيئة الأسترالية الرعوية، وعادة ما يدور حول حكايات بطولة ومغامرة ويوظف المفردات والتعابير المحلية المرتبطة ببيئته التي

ولكن أمنيتها الحقيقية هي أن تفر إلى المدينة، لتلتقي كتابًا آخرين وتكون جزءًا من مشهد أدبي. فرصتها لم تأت حتى بلغت الستين. بعد ترملها بفترة قصيرة، اشترت لنفسها شقة في مبنى «ماكلي ريغز» في بلدة «كينغز كروس»، في قلب سيدني البوهيمية. وبعد أسبوع أو نحوه بعد انتقالها توفيت أثناء نومها. نهاية حزينة، بالطبع، ولكن ما أثار إعجابي كان هو قوة طموحها - فقد حافظت عليه لزمن طويل في وجه كثير من المصاعب. كما أنني معجبة بحقيقة أنها كانت تنظر إلى الكتابة نظرة جدية، وهو ما برر لي القيام بالشيء نفسه، أن أحمي اللهب الصغير لطموحي ما إن بدأ في الانبثاق في المرحلة الثانوية.

وبدون مثال جدتي، من يدري ما سيكون مصيري؟ لربما اعتبرتُ الشعر مضيعة للوقت وركزتُ على حصص العلوم. وكما كانت الحالة، فإن جزءًا مني كان يؤمن دائمًا أنني أكنُّ الاحترام والتقدير لذكرى جدتي عبر اختيار الكتابة كمهنة، وأنني كنتُ أكمل شيئًا بدأته هي، أو على

انطلق منها. [المترجم]

الأقل آخذ على عاتقي القيام بذلك. أعلم أنها غير مدركة لذلك، ولكنني ما زلتُ على قناعة أنها ستسعد بالتفكير أن هذه هي الطريقة التي تُتذكر بها. بهذه الطريقة، أيضًا، هي رائدة، تقدمتني إلى عالم البوهيميين في الأثير.

* * *

۲
غبار ورماد

أنا الأصغر سنًا بين ثلاثة أطفال. أختي سارة تكبرني بستة أعوام، وأخي إليوت يكبرني بأربعة أعوام. لدي انطباع بأنني كنت مفاجأة، إن لم أكن خطأ. وكما تروي أمي، حين أعلنت أنها حبلى للمرة الثالثة، هزت جدتي رأسها غير مصدقة، وقالت: «يا لك من فتاة غبية». وكانت محقة في قلقها على علاقة الزواج بين والديّ. ولسبب ما، كانت هذه القصة تدفع أمي دائمًا للضحك. لم أكن أستوعب موضع النكتة؛ ربما كان عليكِ أن تكوني هناك.

ومن حين لآخر إبان نشأتنا كانت أمي تأخذ سارة وإليوت وأنا إلى المكان الذي وُلِدتْ فيه. كنا نذهب في عطلات الشتاء المدرسية، من سيدني، ولاحقًا من كانبيرا. كانت الرحلة تستغرق يومين أو ثلاثة بالسيارة، صعودًا عبر نيو ساوث ويلز، وعبر الحدود إلى كوينزلاند، حيث المدن تقلُّ شيئًا فشيئًا وتصبح مجللة بالغبار أكثر كلما ابتعدنا أكثر، وحيث الأفق يتسطح، والسماء فوقنا تتسع إلى أن يصبح هناك الكثير منها حد أن تؤلمك عيناك من التحديق فيها.

كان روتين رحلاتنا متشابهًا دائمًا. كنا نقيم مع أخت أمي الصغرى جيني وزوجها رانالد. كانا يقيمان في «نورث ديلتا»، في أرض للأغنام والماشية بالقرب من «باركالداين» كانت تعود

ملكيتها إلى جدي نورمان موراي. الأرض هناك كانت مصفرة معفرة، وكنا نصل إليها عبر طريق مُثّلمٍ كانت أمي تقود فيه بحذر شديد بسبب الغبار الذي تثيره الثيران. كنت أدرك أنها خائفة عندما تنحرف عن الطريق. كانت تتشبث بالمقود وتضيّق عينيها لبضعة أقدام أمامها، متوقعة أن نصطدم بكارثة في أية لحظة. لم تكن الحياة في البر شيئًا طبيعيًا بالنسبة لها. ربما تكون قد وُلِدتْ هناك، ولكن بعد سنوات من المنفى أصبحتْ أميل إلى طباع سكان الضواحي وفي مثل حذرهم.

في نهاية رحلة طويلة مثل هذه كان المنزل دائمًا مصدر بهجة للناظر، قائمًا في أرض مقطوعة الشجر محاطة بسياج غير مشذب. كنا ندخل بسيارتنا من الجهة الخلفية، متخطين سقيفة الآلات وأقنان الدجاج وزريبة الخنازير والكلاب المقيدة على الطريق. كانت الشرفات واسعة وواطئة، بحيث يبدو المنزل من بعيد وكأنه محض سقف أحمر. وما إن تدلف عبر باب المطبخ، حتى تدرك على الفور الغرضَ من ذلك. فذاك كان يعني أن الشمس كانت ممنوعة من الدخول، ليبقى الداخل معتمًا وظليلًا مثل كهف.

لم يكن هناك منطق حقيقي وراء تصميم الدلتا. وراء المطبخ كانت هناك غرفة الإفطار، وهي في حقيقة الأمر قسم مغطى من

الشرفة، وفيما وراء ذلك منطقة مكتظة بالغرف التي أضيفت أو قُسّمتْ مع مرور الوقت لتتسع لجيني ورانالد وأبنائهم الأربعة. كانت جيني تتقدمنا إلى الغرف، محـددة مواضعنا فيها، ثم بعد ذلك تقدم لنا الشاي في الجزء الأمامي من المنزل، حيث كانت الشرفة أوسع ما تكون، مطلة على المرج وحوض السباحة.

هنا في هذا المكان كانت الحوارات تدور والحكايات تُروى. وهنا عرفت من أين جاءت أمي ولماذا كانت تحمل عبء ذلك الحزن. ولـم يكن ذلك واضحًا بشكل جلي، لأنها كانت وبشكل عام شـخصًا يحب الضحـك والاسـتمتاع بالحيـاة، ولكن كان مخبوءًا تحت حيويتها توتر آخر، نوع من الحزن المتعذر محوه ما كان لأي قدر من الابتهاج أن يبطله. وسرعان ما تبين أن هذا الحزن قد تأصل فـي طفولتها في كوينزلاند، التي شـعرت أنها مضطرة للعودة إليها بشكل دوري، مصطحبة إيانا معها بوصفنا موضع تبريرها.

من الملاحظ أن أبي كان نادرًا ما يرافقنا في هذه الرحلات. فغالبًا ما كان، في الأيام المبكرة، يطير في مكان ما، ولكنه لاحقًا لم يأت لأن أمي كانت تفضل السـفر بدونه. كان هناك كثير من الحديث في الشـرفة عن تعجل أمي بالزواج من الطيار الوسيم

الذي التقته في أحد البارات، وعن كيف ساءت الأمور على نحو مريع في السنوات اللاحقة. استمعتُ إلى هذه الحكايات بانتباه مضاعف. لم يخبرني أبي سوى بالنزر القليل عن نفسه، وكان من النادر السماع عنه من أناس مثل جيني ورانالد اللذين عرفاه منذ البدء، لذا فقد ركزتُ انتباهي، وقد تيقظتْ حواس الكاتبة لدي بالفعل، مقاربة بين الأمور، مخمنة، ومختلقة، ومحاولة إدراك ما عناه ذلك كله. كان أخي وأختي يفضلان امتطاء صهوة الخيل مع أقاربي، ولكنني كنتُ راكبة خيل مترددة وكنت أشعر بسعادة أكبر بالجلوس منفرجة الساقين على كرسي القرفصاء ملتهمة كعك الشاي ومتشربة أساطير العائلة.

أحببتُ جيني ورانالد. كانا عطوفين ومرحين. كل صباح كان فرن AGA يُوقد ويفيض بالطعام مع الفجر. كان رانالد هو من يطهو وجبة الإفطار، حيث كان يقلي كميات كبيرة من كبدة الضأن، ولحم الخنزير المقدد، والبصل، والبيض، أولًا للعمال، الذين كانوا يخرجون للعمل مبكرًا، ومن ثم لنا نحن المتسكعين، الذين كنا نجيء لطاولة الطعام وأطياف النوم لا تزال تداعب أجفاننا في الثامنة.

«يا إلهي، هل سبق لكم أن رأيتم جماعة عديمة الفائدة؟» كان

يقول. «عليّ أن أصحبكم معي لتقطعوا أعمدة السياج ليوم أو يومين. حينها ستدركون أنكم أحياء».

وقد حدث أن خرجنا معه بعض الأيام، في الشاحنة لتفحص أحد السدود أو لإصلاح مضخة في مكان ما. جيني كانت تزودنا بالطعام لأوقات الاستراحة: كثير من كعك الفاكهة، وعلب ملأى بالكعك المرقق، والشاي. وفي الطريق، كان رانالد يتحدث عن الطقس أو أسعار اللحوم، ومخاوفه فيما يتعلق بحال البلاد. كان محافظًا متشددًا، خائفًا من الشيوعيين، والنقابات، والكاثوليكيين، وكان مقتنعًا أن الصينيين عازمون على التسلل من الشمال حين يكون الجميع غافلين. ولكنه لم يكن مبغضًا للجدال، وحين كانت أمي تدحض آراءه كان يخوض معها في شجار كما لو أنها كانت رياضة. كان أيضًا محبًا للشعر وكان يتلو شعر برنز[١] وتينيسون[٢] أثناء عمله بعيدًا قاطعًا الأخشاب، أو مصلحًا البوابات،

(١) روبرت برنز Robert Burns (١٧٥٩ - ١٧٩٦) شاعر أسكتلندي، مؤلف عديد من القصائد باللغة الإنكليزية ولهجة الأراضي المنخفضة. من ألقابه الشاعر الفلاح وشاعر آيرشير. يُعد برنز الشاعر الوطني لأسكتلندا. [المترجم]

(٢) ألفريد تنيسون Alfred Tennyson (١٨٠٩ – ١٨٩٢) شاعر إنجليزي من أبرز شعراء القرن التاسع عشر، عين شاعرًا للبلاط في ١٨٥٠. =

وكان صوته العـذب يتصادى في الفراغ حولـه. كان ذلك يدفع أمي للبكاء وهي تسـتمع، وذاك كان سـبب فعله له، كنتُ على تمام الثقة من ذلك.

«ما كان ينبغي عليك الرحيل بعيدًا» قال لها. «كان أحرى بك أن تتزوجي رجلًا صلبًا صالحًا من هنا وأن تصبحي زوجة ريفية عادية».

«وأن أفقد عقلي، كما حدث مع ريل»، قالت أمي.

ريل كانت جدتـي. رجوعًا إلى الشـرفة، كانـت جيني وأمي تتحدثان عنها بقـدر ما تحدثتا عن أبـي، وغالبًا ما شُـبّه الواحد منهما بالآخر، كما لو كانا جزءًا من المشكلة نفسها، والاقتراح هو أن أمي تزوجت رجـلًا كان يذكّرها بأمها، وأنها دفعتْ ثمن ذلك. الصورة التي كونتها عن جدتي، وأنا أستمع إليهما تتحدثان، هي لامرأة جميلة، متغطرسة، سريعة الغضب، غير مؤهلة كأم، وتعيسة كزوجة، محاطة بحالة من القلق الذي لا هوادة فيه دفع بها للانهيار مرة أو اثنتين تحت عبء كل الضغوط التي تعرضتْ

= ويُعد تنيسـون أسـتاذًا للشـعر الغنائي كما يُعد الشـاعر الذي يمثل عصره. [المترجم]

لها. والأكثر انتشارًا، كما عرفت، أنها عانت من انهيار عصبي خلال الحرب ومكثت شهورًا عدة في عيادة في بريسبين محاولةً التعافي. السبب كان واضحًا للعيان: ابنٌ في البحرية في مكان ما من المحيط الهادي، وأمي كانت تعمل بالتمريض في مستشفى تابع للجيش في تاونزفيل، وأخت أمي الأخرى جودي كانت قد تزوجت بالفعل في السابعة عشرة من عمرها، وجيني بعيدة في مدرسة داخلية، ولم يكن هناك رجال يمدون يد العون للعمل في الأرض، وزوجها كان يعمل من الفجر حتى الغسق، مع كل المخاطر المصاحبة. عاد إلى المنزل في إحدى الليالي ليجدها تُعِدُّ حقائبها كيفما اتفق، حاشرة كل ما تملكه فيها، وقد انقلبت الغرف رأسًا على عقب.

الانهيار العصبي الذي أصيب به والدي كان أقلَّ دراماتيكية. كنتُ كبيرة بما يكفي لتذكره وهو يأوي إلى فراشه رافضًا النهوض منه لأيام تلو أيام. ربما حملتُ إليه شطيرة بين الحين والآخر، تاركة إياها على المنضدة بجوار السرير ليأكلها حين يستيقظ. يبدو أنني أتذكره دائمًا وهو نائم، وشعره غير مغسول، وخداه مغطيان بشعر داكن، وشراشفه كريهة الرائحة. جيني، التي كانت تزورنا في سيدني في ذلك الوقت، كانت تتذكر إرساله الرسائل

عبر قطعة من الخيط الـذي يدليه إلى أمي من نافـذة غرفته إلى المطبخ في الأسفل.

«كان يربط رسـالة في طرف الخيط»، أخبرتنـي، «طالبًا فيها كوبًا من الشاي وبسكويتًا».

كانت أمي تضحك بمرارة.

قالت: «أخـذتُ له موعدًا لزيـارة طبيب نفسـي، لكنه رفض الذهاب».

كنت منبهرة بهذين القريبين ومشـاكلهما، جدتـي مع قلقها، وأبي مع عدم قدرته على البقاء في مكان واحد، إلى أن انعطبت أعصابه لدرجة عـدم قدرته على الحركة. لم يكن بوسـعي منع نفسي من التساؤل حول مدى ما انتقل منهما إليّ، واحتمال أن يكون الانكسار بفعل الضغوط سمة تجري في العائلة. تساءلتُ أيضًا عن مصدر هشاشتهما، وما إن كانت فرط حساسية موروثة للأشياء، أم كانت نتاج غضب مبرر تحت الضغوط التي اضطرا للعيش تحتها. واحدة من نظريات أمي أن كلاهما كانا يتمتعان بقدرات لم تُستكشـف، وأنهما لم يحظيا بتعليم ملائم وبالتالي فقد شعرا أنهما لن يتمكنا من التعويض عما فاتهما أبدًا.

«من الملفت أن كليهما لم يكمل الدراسة»، قالت، موضحة أن جدتي طُردت من مدرسة توومبا الداخلية في عامها الأخير، وأن والدي طُرد من المنزل والمدرسة حين كان في الخامسة عشرة.

قالت: «الحرب أنقذته. لقد اتخذ من الكذب مطية للوصول إلى الجيش ولم يلتفت إلى الوراء أبدًا».

أما فيما يخص جدتي، فقد تزوجت في الثامنة عشرة من عمرها وأنجبت أربعة أطفال خلال عشرة أعوام. «هناك»، قالت أمي، وهي تشير في المساحات الخالية فيما وراء السياج، «دون أن يكون هناك أحد تتحدث معه. لا غرابة أنها فقدت عقلها».

في وقت ما خلال رحلتنا، كان شقيق والدتي بيتر وزوجته جان يتصلان بنا لدعوتنا لزيارة «بيكونزفيلد» لنقضي النهار هناك. بطريقة ما كانت تلك هي المحطة الأبرز في رحلتنا، لأن «بيكونزفيلد» هي موطن العائلة، المكان الذي نشأتْ فيه أمي مع أخيها وأختيها. ومع ذلك فإننا لم نمكث هناك أبدًا، وكنا نكتفي بالذهاب لتناول الغداء.

في واحدة من المرات التي ذهبنا فيها في مثل تلك النزهات،

قالت أمي: «ما هو الرهان على أنها ستجعلنا نتناول الطعام في المطبخ في صحون ورقية».

استنتجتُ أنه ما من حب ضائع بين أمي وزوجة أخيها. في حبكة أشبه بحبكة صاغتها جين أوستن، ورث بيتر، بوصفه الولد الوحيد، بيكونزفيلد بشكل كامل، سالبًا أيَّ ادعاء بالملكية من شقيقاته، فيما عدا ارتباطهم العاطفي بالمكان. وفي فعل ذلك، حسب رواية أمي، كان من ساعده بحماس وحرضه هي جان، التي ذهبت إلى أبعد من ذلك باقتراحها أن جدتي لم تعد مرحبًا بها في منزلها.

«هذا هو السبب الذي دفع بريل للذهاب في تلك الجولة البحرية حول العالم»، قالت أمي. «لم يكن لديها مكان آخر تذهب إليه. وبعد ذلك جاءت لتبقى معنا في سيدونا».

لا أتذكر سيدونا، التي تقع على الساحل الغربي لأستراليا، إلا على نحو غامض جدًا. انتقلنا إلى هناك لفترة قصيرة حين كنت في الرابعة من عمري، حين حصل والدي على وظيفة مع «خدمة الطيران الطبي الملكي». ولكنني أتذكر طاقم الشاي المصغر الذي جلبته جدتي من هونغ كونغ، والفستان ذا الطيات

في الجزء العلوي منه الذي انخدش في حرارة الصحراء. كما أنني رأيت صورة لها وهي تنزل بجلال من طائرة DC3، وشعرها مربوط بشال، وعيناها مخبأتان وراء نظارة شمسية ضخمة، وحزنها يلتف حولها مثل غمامة شخصية.

قالت أمي: «مسكينة أمي، قضت أيامها جالسة على الرمل وهي تحدّق في البحر. لا أحسب أنني سأرى أبدًا أحدًا في مثل ضياعها».

المنفى، قررتُ. لا بد أن هذا هو تفسير حالة حزن أمي. أولًا نفيها من الوطن، رجوعًا إلى الطفولة، حينما أرسلت إلى مدرسة بعيدة في بريسبين في سن الثامنة، ولكن وبعد ذلك مشهد طرد أمها من المكان الذي عاشت فيه طوال مرحلة رشدها. وإذا ما كان لي أن أذهب أبعد من ذلك، مَن النسوة الأخريات اللاتي أجدهن منتزعات من مكانهن، ومنفيات، ومنبوذات؟ والدة ريل على سبيل المثال، التي عرفتها من الحكايات فحسب، محتجزة في منزل مضعضع في «لونغريش» حيث كانت تقوم بكل شيء لخدمة شقيق ريل الأعزب فرانك، في محاولة، كما أتخيل، لتبقيه قريبًا. جدتي كوري هي الشخص الوحيد الذي كان كبيرًا بما

يكفي لتتذكر، حين عرفتها أمي كطفلة، الهجوم بالحراب على مالكي الأراضي بوضع اليد والعقوبات المميتة التي تلت ذلك. ربما كان هذا هو الحزن الجذري لأي شخص جاء من هناك، من تلك المدن؛ كان حزن المبادين، المسمومين، المرضى والمستلبين. ربما لم يكن بوسع أي قدر من النسيان أن يكون كافيًا ليمحو تمامًا ذكرى الانتزاع الأصلي، الجريمة الأساس، التي مرت دون عقاب إلى الأبد، لأنه لم يبق أحد ليشهد أو يروي ما حدث.

فكرت في ذلك ونحن نمضي بالسيارة نحو بيكونزفيلد في إحدى الدعوات إلى الغداء. لا بد أنني كنت في المرحلة الثانوية حينها، وقد تفتح وعيي بالتاريخ السري لبلادي. صدمني أنه لم يظهر في حكايات أمي عن طفولتها سوى اثنين من السكان الأصليين. إحداهما خادمة منزلية صغير السن ولا اسم لها أرسلت من إحدى الإرساليات لتعمل لدى ريل بعد فترة قصيرة من زواجها بنورمان. أصيبت الفتاة بالذعر وولت هاربة. أما الآخر فهو رجل كبير السن عرف فقط باسم بيل، الذي عملَ لنورمان لسنوات راعيًا للماشية وحمالًا للحطب. كان لدى أمي صورة لبيل وهو يقف إلى جوار مهر، وهي تجلس

على سرج في الخلف، ولها من العمر ثلاثة أعوام أو أربعة.

«كان مخلصًا لأبي»، قالت. «كل صباح كان يجلس عند باب المكتب حتى يخرج أبي ليخبره بما عليه فعله. وفي أحد الأيام اختفى دونما أثر».

كان بيل والخادمة، بالطريقة التي كانت تروي حكاياتهما، أشبه بالأشباح، أشباح تعود لبرهة من عالم ما آخر لتطالب ببلادها، وبعد ذلك تختفي مرة أخرى، وقد حال بينها وبين البقاء حزن شديد تملكها.

كان المشهد يتغير في مكان ما بين «باركالدين» و«لونغريش». الأشجار تختفي، والتربة تتغير من اللون الأصفر إلى لون العظام الأبيض. وحين تُرى أثناء موسم الجفاف فإنها تبدو أشبه بسطح القمر، محض أرض جرداء، ولكنها يمكن أن تصبح عقب هطول المطر محيطًا من العشب. خمنت أن «بيكونزفيلد» أفضل من «ديلتا»، رغم أنه لم يكن بوسعي البت بذلك، غير عارفة بمقتضيات الرعي. كل ما رأيته، ونحن نتجه صوب طريق بيكونزفيلد، كان خواء لا سمات له. ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لأمي، التي كانت تعرف كل تفاصيل الطريق من سنوات السفر عليه

ذهابًا وإيابًا إبّان طفولتها. كانت تتذكر أين ينعطف الطريق صوب الجدول الجاف، حيث يرتفع مرة أخرى ليمنحك أول لمحة لك للمسكن وما حوله من الأرض، حيث يعبر بشاهدة قبر راعي البقر الذي ضربته صاعقة ليخر ميتًا من فوره قبل أكثر من نصف قرن. كانت متحمسة لسفرها على الطريق نفسه مرة أخرى. أستطيع الجزم بذلك من طريقة جلوسها المتحفز في مقعدها مشيرة إلى ما هو بانتظارنا ونحن نتقدم إلى الأمام.

«ذاك هو المكان الذي كان أبي يوقف فيه السيارة التي تعيدني من القطار بعد انتهائي من الدراسة. في الطريق إلى البيت قلت إنني أريد الذهاب إلى الجامعة. فكان يقول إن ذلك مضيعة للوقت، وإن الجامعة تعج بالشيوعيين. كان علينا أن نترك السيارة ونعود بقية الطريق راجلين ونحن نتجادل».

ذاك هو مرة أخرى. منفى والدتي، التي ذهبت إلى الجامعة في نهاية المطاف، بعد أن نجحت في إقناع أبيها بمنحها الإذن، وذاك ما جعلها تبرز، فيما تبقى من حياتها، بوصفها قد نالت قسطًا أكبر مما تحتاجه من التعليم على نحو خطر، مع امتلاء رأسها بأفكار غريبة على عائلتها. وهو ما جعلهم يخشونها.

بدت عليها علامات الابتهاج حين ظهر المسكن وما حوله من أرض أمامنا. كان أفخم على نحو غامض من ديلتا، رغم أن لهما المخطط الأساس نفسه. ظُلةٌ ضخمة من الغطاء الأخضر فوق بناء مترامي الأطراف بدا من دون جزء خلفي أو أمامي، نظرًا لتوسعه عبر السنين انطلاقًا من مركزه. كان ثمة حديقة خصبة تظلل المنزل من جميع الجهات، حتى بدا وكأنه واحة وسط أرض جرداء تحيط به من كل الجوانب. ظهر بيتر وجان في ممر الحديقة ولوّحا مرحبين. لم يبدوا لئيمين بالطريقة التي سمعت عنهما، كل ما في الأمر أنهما كانا يتصرفان كمالكين للمكان، وهو ما كان يكفي ليزعج أمي، التي قالت: «كم يفاجئني أنهما لم يطلبا منا أجرًا للدخول».

وضع بيتر ذراعه حول كتف زوجته كمن يحميها وتقدما معًا عبر البوابة ليكونا هناك حين تتوقف السيارة.

«مرحبًا بكم في بيكونزفيلد»، قال، كما لو أنه كان يخاطب مجموعة من الغرباء، وتلت ذلك أحضان وسلام بالأيدي، دون أن يتسم ذلك بالدفء. كان ذلك نقيضًا لرانالد الذي يوشك أن يحملك عن الأرض حين يلتقيك، ويضمك إلى صدره العريض حتى تتمكني من استنشاق رائحة الرجل العامل فيه.

«تفضلوا، تفضلوا»، قالـت جان. «لنأخذكم فـي جولة على المكان».

كانت الجولة على شرف أمي، لكي تشاهد كل التغييرات التي حدثت منذ آخر زيارة لهـا. أُضيفت غرف، أو دمجـت معًا، أو فتحت، وجعلت أكثر رسمية أو أكثر عفوية، مع إعادة تأثيثها وفقًا لذوق جان. وكنت ألاحظ، أثناء ملاحقتي للجماعة في المكان، أن انزعاج أمي يزداد أكثر فأكثر، كما لو أن الأمر برمته كان صفعة على الوجه. كان بيتر يسـتخدم تعبير «أمي» و «أبي»، وهي زلة كانت تثير سخطها لدرجة دفعتها لتصحيح عبارته أكثر من مرة، فكانت تقول «أمنا» و«أبونا».

لكنه لم يلق بالًا لذلك. لقد كان منهمكًا جدًا في التباهي بغرفة الطعام الرسمية، التي كانت مؤثثة، حسب ما قالته أمي، بقطع تذكرتها من أيام طفولتها: الطاولة الصقيلة الطويلة ذاتها مع نفس المقاعد المتينة، ونفس نضد المائدة المزدحم بآنية المائدة الفضية وآنية الخزف التي تذكر استخدامها لها حين كانت طفلة. أراد بيتر أن يريها أين جلس حاكَم الولاية في زيارتـه الأخيرة، وأي من الـوزراء الفيدراليين قد جلسوا بجواره، ولكن أمي ما كانت لتعبأ بذلك.

«هنا كانت ريل تجلس»، أخبرتني، «الويسكي في يدها. أتذكر أنه كان لها طريقة بفرك إصبعها الصغير بإصبعها الذي ترتدي فيه الخاتم. وتلك كانت علامة على أنها ستنفجر».

جلستْ على المقعد وأرتني الحركة، ممسكة برأسها كما كانت تفعل أمها. رأيت ما يكفي من الصور لريل لأتعرف على رفعة الذقن، والنظرة المتعجرفة.

«جلستْ قبالة أبيك على هذه الطاولة ذات مرة»، قالت لي، «وألحت في معرفة متى سيكف عن المغامرة ويلتحق بعمل حقيقي».

«ما الذي قاله؟»

«سأتحاشى ذلك لأطول فترة ممكنة».

«هذا هو سبب انسجامهما معًا»، قالت جيني. «لم تكن تخيفه».

وفقًا لما تقوله الأسطورة، كانت جدتي مسحورة تمامًا بأبي، بذات الطريقة التي سحر بها الجميع. كان يلعب دور الطيار المقدام، وكان يجيء محلقًا من حين لآخر في زيارة مفاجئة بطائرة واحد من أصدقائه، نازلًا في مهبط الطائرات في بيكونزفيلد

مرتديًا بنطالًا يستخدم لركوب الخيل وحذاء من جلد الغزال، ملاعبًا طرفي شاربه، ومذهلًا الجميع بابتسامته البغيضة.

«كنا نسميه إيرول فلن[1]» قالت جيني.

«لم يستسغ أبي الحذاء أبدًا»، قالت أمي. «كان يعتقد أن الحذاء المصنوع من جلد الغزال رمز للشاذين. حتى أنه أخذني جانبًا في إحدى الليالي ليحذرني».

«هل نتناول الغداء الآن؟» قالت جان، وقد بدا عليها الانزعاج من تحول مسار الحديث. شعرتُ أنها وجدت أمي مشوشة، وغير محترمة تمامًا، وأن زيارات أمي كانت محنة تتطلب احتمالها أكثر من كونها مناسبة تستدعي الاحتفاء.

وكما خمنت أمي، تناولنا الغداء في المطبخ، محشورين في ركن مخصص للإفطار، حيث حضّرت جان سلطة وصحنًا من الساندوتشات على طاولة صغيرة من الفورميكا. كان الحديث يدور بشكل أساس حول المطر وندرته، وحول ثروات الأصدقاء

(١) إيرول فلن Errol Flynn (١٩٠٩-١٩٥٩) ممثل أسترالي المولد حقق شهرة واسعة في العصر الذهبي لهوليوود، وعرف بأدواره الرومانسية، وعلاقاته النسائية المتشعبة. [المترجم]

والجيران الذين يواجهون المصاعـب. تعرفت أمي على بعض الأسـماء واشـتركت في الحديث، متداركة بعض أخبار عشائر كانت تعرفهم منـذ أيـام صباها، أصدقـاء مكثوا حيـن رحلتْ، وصنعوا حياتهم في الريف، في حين كانت هي مشغولة في ابتكار حياة مختلفة كليًا في مكان آخر.

سرعان ما أحسـت بالضجر على الطاولة واستأذنت، قائلة: «أودُّ التجول في المكان لوحدي».

لاحقًا وجدتها مسـتلقية على ألواح الأرضيـة العارية للممر الذي يفصل البيت في المنتصف تمامًـا، أو كان كذلك قبل أن تغير الإضافات والتعديلات كل شـيء. للوهلة الأولى حسبتُ أنها سقطت هناك.

«هل أنت على ما يرام؟»

«لم يكن بإمكاني احتمال المزيد من تلك الثرثرة السفاحية»، قالت. «ألم تلاحظي كيف أنهما لم يسـألا أبدًا أي سـؤال عنا؟ وكأن ما من شيء فيما وراء حدود السياج».

جلستُ إلى جوارها على ألواح الأرضية الباردة.

قالت: «اعتادت ريل الجلوس هنا في أصائل الصيف، لتلتقط أيما نسمة باردة تمر. كانت ترفض الحديث، فيما عدا إخبارها المربية أن تبقينا بعيدًا».

تذكرتُ حالات الاكتئاب التي كانت تنتاب أبي، والتي تستمر أحيانًا يومين أو ثلاثة أيام، حين لم يكن يقول كلمة واحدة لأي أحد. أعرف الخوف الذي يمكن لهذا النوع من الصمت أن يحدثه. تكون مقتنعًا أن الخطأ خطؤك، وأن وجودك نفسه شيء مثير للغضب. على الأقل هكذا كان الحال مع أبي. لم يخف أبدًا حقيقة كونه يبغض الحياة العائلية وأنه كان يجد متطلبات الأبوة أكبر من طاقته على الاحتمال. خمنتُ أن ريل كانت مثله، فقد أثقلت بأربعة أطفال قبل أن يكتمل نضجها تمامًا، وكانت تشعر بالفزع لتضحيتها بشبابها، وأي نوع من أنواع الاستقلال الذاتي، سواء أكان ذلك على المستوى المالي أم العاطفي. لا غرابة في أن أمي أخفت قدرًا كبيرًا من الحزن. لا بد أنها تشربته منذ ولادتها، وتنشقته مع الهواء. وها هي الآن قد عادت إلى المصدر، مالئة ذاتها به مرة أخرى، وهي مستلقية على الأرضية في اَلمكان الذي كانت أمها تحتمي بالصمت فيه طوال فترات ما بعد الظهر شديدة الحرارة.

قالت، وقد انتصبت على قدميها: «حان وقت الذهاب. لقد رأيت ما يكفي».

كان بيتر وجان بالكاد يستطيعان إخفاء ارتياحهما ونحن نستعد للرحيل. صحبانا إلى البوابة وتألق وجهاهما ونحن نركب السيارة، وقالا: «القوا التحية على رانالد بالنيابة عنا»، متظاهرين بالكياسة. كان لدي انطباع بأنه كانت لديهما تحفظات خاصة حول رانالد كما هو الحال بشأن أمي، معتبرين كليهما غير جديرين بالاحترام، وإن يكن ذلك لأسباب مختلفة.

قالت أمي: «ستكون داخل المنزل خلال دقيقة، وستمسح أرضية المطبخ لتتخلص من فتات الخبز الذي خلفناه وراءنا».

ومع وصولنا إلى الخور الجاف طلبتْ من جيني أن توقف السيارة، وقالت: «هاهنا كان موضع مكب النفايات القديم».

تبعتها في المكان وهي تفتش في القمامة بعصا. كانت بقايا ضئيلة، لكنها استخرجت عدة زجاجات دواء مصنوعة من الزجاج الملون وكسرتين من شظايا الخزف الزرقاء والبيضاء من التراب.

«كان هناك مزارعون صينيون يعملون في السوق هنا حين كنت طفلة»، أخبرتني، «وواحد أو اثنان من الطهاة».

مزيد من الأشباح، فكّرتُ، مزيد من الأشباح التي تطفو في الصورة، ومن ثم تختفي مرة أخرى. هـذه المرة تركوا وراءهم أثرًا ضئيلًا، بضعة كسر من إناء أرز، قطعة من صورة مرسومة على صحن، يظهر فيها قارب على بحيرة وجزء من أحد الجسور.

رجوعًا إلى السيارة، أعادت سرد حكاية الطاهي الصيني الذي طردته جدتي فور انتقالها إلى «بيكونزفيلد» بوصفها زوجة جديدة.

قالت: «كان الطاهي يعمل هنا لسنوات، مع كل الرجال، حين لم يكن البيت سوى سقيفة وكان المطبخ ملحقًا على الجانب. ضبطته وهو يُسقط رماد السجائر في الحساء وأخبرته أن يحزم أمتعته».

«لن أرحل أنا، آنستي»، قاطعتْ جيني، ناطقة بختام الطرفة المعتاد. «اذهبي أنت».

ضحكا كلاهما على فكرة أمهما ذات الثمانية عشرة ربيعًا التي تحاول فرض سلطتها غير الموجودة على العاملين، على الرغم من أنني أحسست بحزن يبطن هذه الحكاية، أيضًا. جيني كانت تعرفَ ما يعنيه أن تكوني المرأة الوحيدة في منزل مليئ بالرجال. وبغض النظر عن مدى لطفهم – وجدّي كان بكل المقاييس لطيفًا

- فلا بد أن جدتي كانت تشعر بالوحدة، وكانت هناك أوقات شعرتْ فيها بالخوف. وماذا عن الطاهي، الضائع هنا، البعيد عن أي مكان يمكن أن يدعوه الوطن، ومصيره في يدي فتاة مراهقة.

توقفنا مرة أخرى، قبيل بوابة الحدود لبيكونزفيلد، حتى تستطيع أمي الخروج وتملأ إحدى قوارير الدواء بالتراب. شاهدتها تمشي مسافة عدة ياردات إلى حيث كان التراب ناعمًا ورمليًا. افترشت الأرض على ردفيها وغرفت ملء كفها أو كفيها من التراب إلى أن نالت كفايتها منه.

وبالعودة إلى السيارة، دست منديلًا ورقيًا في عنق القارورة لتمنع التراب من الخروج، وقالت: «قطعة من الوطن».

***

احتفظت أمي بقارورتها التي تحوي تراب بيكونزفيلد لسنوات عديدة وخلال عديد من التنقلات، إلى أن تم التخلص منها أو أنها ضاعت، ثم طواها النسيان مع كل شيء آخر كانت تعده عزيزًا عليها. لا أعرف إن كانت تمتلك أي مفهوم للوطن في الوقت الذي رحلت فيه. كانت تتحدث بهوس عن الذهاب إلى هناك، متوسلة لي لأخذها إلى الوطن في كل مرة أراها فيها.

ولكنني لم أكن واثقة مما عنته. فقد أقامت في أوطان عديدة في ذلك الوقت، أكثر من عشرين موطنًا، أحبت بعضها ولم تحب بعضها الآخر. هي بالتأكيد لم تكن تعني دار العجزة التي أمضت فيها أيامها الأخيرة.

«هذا هو وطنك الآن»، أقول لها، محاولة تهدئتها.

«كاذبة».

لم أكن مع أمي حين ماتت. كنا، شِن وأنا، في اليابان بشكل مؤقت، في محاولة لإيجاد طريقة ما له لتأسيس قاعدة في موطنه الأصلي. قبل أن أغادر بريسبين، التقينا سارة وأنا بمسؤول جنازات. قررنا أن نعد ترتيبات الجنازة لأمنا مقدمًا، بالنظر إلى حالتها المتدهورة. شعرنا أن إحراق الجثمان البسيط كان هو الخيار الأفضل، مع إقامة حفل تذكاري لاحقًا، في وقت يلائم جميع أفراد العائلة. لم نكن نريد أي شعائر دينية لأن أمنا نفضت يدها من الكنيسة منذ أمد طويل. سارة اقترحت إقامة حفل؛ فأمنا كانت تحب الحفلات دائمًا.

«إذا ما فعلناها على هذا النحو»، قالت أختي، «فليس عليك التعجل بالعودة إلى الوطن إذا ماتت. فما سيكون المغزى من

ذلك؟ لقد شعرتِ بالحزن عليها طوال هذه السنوات على أي حال».

شعرت بالامتنان لها لقول ذلك، ولاهتمامها بي كأخت لها.

ما لم نفعله هو مناقشة أفكارنا مع إليوت. لا أستطيع على وجه التحديد معرفة السر وراء سوء التواصل مع شقيقنا. الجواب الأسهل هو أنه كانت لكل منا حياته المنفصلة في مدن مختلفة – أنا في بريسبين، وسارة في نيوكاسل، وإليوت في «بلو ماونتنز»، إلى الغرب من سيدني. أما الجواب الأكثر تعقيدًا فهو أن الطريقة المفككة التي نشأنا بها جعلتنا حذرين من بعضنا بعضًا. وكان هذا صحيحًا على نحو خاص بعد أن بدأ زواج والدينا يتضعضع. كنا أنا وشقيقتي على الأقل نستطيع خوضَ حديثٍ معًا، ونتبادل الأخبار على الهاتف عن أطفالنا، وتواسي كلٌّ منا الأخرى بشأن تدهور حالة أمنا الواضح، ولكن الحديث مع أخي كان أكثر صعوبة. كنت أتصل به مرتين على الأقل كل عام لأعلمه بآخر ما استجد عن الحالة الصحية لأمنا. وفيما عدا ذلك، لم نكن نتحادث أبدًا.

وفقًا لسارة، وأثناء احتضار أمي، كان إليوت هو من كانت

تريد رؤيته، هو وحده. جاء ليجلس معها، ساهرًا عند سريرها، ممسكًا بيدها.

قالت أختي: «كان كريمًا جدًا، وساعدنا كثيرًا حين كان علينا تنظيف الغرفة، والتخلص من كل متعلقاتهـا. ولكنه انفجر بعد ذلك».

«لماذا؟»

«لأنه كان يعتقد أنه من الأنانيـة ألا تكون هناك جنازة لائقة. كان يعتقد أننا كنا نفكر في أنفسنا فحسب».

«ربما كان محقًا. لربما كنا كذلك».

لأيما سـبب كان، أخذ إليوت علـى عاتقه الترتيب لمراسـم تشييع في المعبد الخاص بدار العجزة الكاثوليكية حيث قضت أمنا السنوات الأخيرة المريعة من حياتها. لم تذهب سارة، وقالت: «لم أرد أن أطأ بقدميّ ذلك المكان مرة أخرى أبدًا».

وبالنظر إلى قلة خبرتنا، ليس مفاجئًا أن نفشل فشلًا ذريعًا في دفنِ رماد أمنا بشـكل لائق. وحتى هذه اللحظة، لم يسـبق لي، على سبيل المثال، أن خضت تجربة موت شخص مقرب مني.

وكنا نحن الثلاثة بدون معتقـدات دينية، وجميعنا بلا أي معرفة بالشعائر المعتادة والطقوس. وبدون وجود ما يرشدنا، كنا سارة وأنا سعيدتين بالارتجال، ولكن ذلك لـم يلائم إليوت، فقرر أن يتصرف وحده بمنأى عنا. حتى هذا اليـوم تمنيتُ لو أنه انتظر. وفي الوقت نفسه، أتفهم سبب عدم فعله لذلك. وإن كانت سارة وأنا نتصرف بدافع الأنانية، فقد كان هـو أنانيًا أيضًا. كنا كذلك جميعًا. ولـم نكن نعرف ما نفعل سوى ذلك.

وهكذا إذن ظلت الحال لبرهة من الزمن. احتفظ إليوت برماد أمنا لديه في «بلو ماونتينز»، وتراجعت فكرة تأبين أشبه بالحفل. أمضيت بعض الوقت في اليابان منشغلة بأشياء أخرى. ولـم تُطرح مسألة أين يجب أن يوضع رمادها مرة أخرى إلا حين عدت إلى بريسبين بعد بضعة أشهر. كنتُ أعرف الإجابة، فقد أرادت لرفاتها أن ينضم إلى رفـات والديها وأجدادهـا في مقبـرة تومـوانغ في بريسبين. أرادت أن يُضاف اسمها على قاعدة الجرانيت الوردي الكبيرة المخصصة لآل موراي. لقـد اصطحبتني إلى هناك قبل سـنوات لتريني المكان. كنا قـد خرجنا في نزهة وجلسـنا على مقعد طويل قريب مستمتعتين بالمشهد الخلاب للمدينة.

قالت: «ادفنوني هنا».

قلت: «بكل سرور».

في تلك المرحلة كنتُ أستبعد أي حديث سابق لأوانه عن الموت. لم تكن أمي مريضة حينها، أو أنه لم يكن بوسعي معرفة ذلك. الآن فقط، حين أستعيد ما حدث، أفكر أنها كانت تشك في أن ثمة خطبًا ما، وإلا فما الذي دفعها للحديث عن طقوس الدفن؟

وبعد مرور عام، اتصلتُ بأختي لأقترح عليها خطة.

قلتُ: «كنت أفكر في أن نجتمع كلنا معًا في سيدني في عطلة نهاية الأسبوع القادمة، ونتناول الغداء معًا، ونشرب نخبًا لوالدتنا، وبعد ذلك يستطيع إليوت أن يسلم الرماد ومن ثم أعيده أنا إلى هنا وأنجز المهمة».

«أين تريدين أن نلتقي؟»

«تشاينا تاون. باربكيو كنج. نستطيع الحصول على إحدى الغرف في الدور العلوي. كانت أمي تحب ذاك المكان».

قالت: «من الذي سيتصل بإليوت؟»

«كنت آمل أن تفعلي أنت ذلك».

حقيقة الأمر هي أنني كنت أخشى شقيقي. كان أشبه بأبي بالنسبة لي من حيث عدم ارتياحي له. كنت أخاف منه منذ كنا أطفالًا صغارًا معًا.

أما سارة، ولأنها أكبرنا، فقد كانت أقل عرضة للخوف منه.

اقترحتْ أن نتناول الدجاج.

وصل إليوت إلى باربكيو كنج متأخرًا قليلًا عن الآخرين. الجميع كانوا هناك: ولده بين، حينها كان في منتصف العشرينات من عمره، وكان أحد المفضلين لدى أمي، شِن وأنا وولدانا، سارة، وابنتها وحفيداها. للأسف لم يكن ابن سارة معنا لأنه لم يكن يتحدث مع أمه في ذلك الوقت.

قلتُ لأختي: «كانت أمنا تعشقه. كان ينبغي أن يكون هنا».

قالت: «لقد حاولتُ».

نهضتْ واقفةً حين دخل إليوت الغرفة ومضتْ لتقبله. فضلتُ البقاء جالسة. في يده كان يحمل كيسًا ورقيًا كبيرًا مع علامة «بولغاري» منقوشة على الجانب، وقام بوضعه على كرسي شاغر.

«هل هذه هي؟» قال بين، وهو يطل داخل الكيس. «يا له من صندوق قبيح».

أخذ الصندوق من الكيس ووضعه فوق الطاولة. كان صندوقًا بلاستيكيًا بيجيّ اللون، في حجم علبة أحذية صغيرة، مع اسم أمنا مكتوبًا على مقدمته بقلم كبير.

قال إليوت: «أعده إلى الكيس».

فعل بين ما طلب منه، واضعًا الصندوق بحذر ومعيدًا إياه على المقعد الشاغر حتى لا يقع.

قالت سارة: «إنه صغير جدًا».

مضى الحديث على نحو سيء بعد ذلك. كان هناك جدل طويل حول ما سنطلبه من طعام. وكان الأحفاد هم من أنقذونا من أنفسنا. وكان بين والآخرون يعيدون دفة الحديث لتتمحور حول أمنا، مؤكدين على أن اجتماعنا كان لأجلها، وما عنته لهم إبان نشأتهم، وكيف أنهم ما زالوا يفتقدونها. أما أبناء الأبناء فقد كانوا عامل إلهاء مفيدًا. كان هناك دائمًا حديث عن تحصيلهم في المدارس، وعن موادهم الدراسية المفضلة، وعما يودون القيام بها حين يكبرون.

«لاعب ألعاب فيديو»، قال أكبرهم سنًا.

«يا إلهي»، قالت أمه، وهي تمسك رأسها بيديها.

بعد ساعة أو نحوها لم يبق ما يمكن الحديث عنه. الجميع كانت لديهم قطارات ليلحقوا بها، أو طائرات في حالة شِن وأنا، وإليوت قال إن لديه موعدًا آخر في مكان آخر. وفي تعجلنا للمغادرة كدنا ننسى الرماد الذي وضع في علبة البلاستيك البيجية اللون في كيس البولغاري، حتى تذكر بين وعاد ليأخذه. أعطاه لأخي، الذي مرره لي، فشكرته.

قال: «ليس ثمة ما تشكرنني عليه».

قلتُ: «هذا ما أرادته».

«إن كان هذا ما تقولين. فكرتُ إنه يمكنني أخذه إلى بيكونزفيلد لنثره هناك».

قلتُ: «فكرت في ذلك أيضًا، ولكنني لا أعتقد أنها تنتمي إلى ذلك المكان».

«كيف تعرفين إلى أي مكان تنتمي؟»

لم أستطع التفكير في رد قبل أن يغادر شقيقي من الباب ويهبط السلالم، تاركًا السؤال معلقًا في الهواء، دونما إجابة. هكذا كانت

الحال بينه وبيني. كل محادثة كانت جدالًا، وكل لقاء فرصة أخرى لإثارة مسألة لا نتفق حولها، ومن ثم نغادر قبل إمكانية حلها. كنا متنافسين قبل أن نكون أخًا وأخته. كنتُ أشعر بالخجل لأجلنا. لربما كان بوسع أسرة أخرى مختلفة أن تضع تاريخ خلافاتها وراءها ليودعوا أمهم وداعًا لائقًا. أما نحن، فكل ما استطعنا تدبره كان ساعة من التودد المصطنع الذي تلاه انسحاب متعجل. شعرت بالسعادة لأن أمنا لم تكن هناك لترى ذلك. ولو حدث ذلك لما أمكن تطييب خاطرها.

جيني كانت معي في ذاك اليوم، في ٢٠١٠، حين دفنتُ رماد أمنا. قادت سيارتها إلى بريسبين من غولد كوست، حيث لجأت هي ورانالد إلى منزلهما المخصص للإجازات. وكان رانالد مريضًا جدًا حينها ولم يكن يستطيع الذهاب إلى أي مكان؛ وكان يقضي أيامه في مقعد مريح أمام التلفزيون والصوت مرفوع عاليًا جدًا إلى درجة تضطر جيني معها لمغادرة المنزل لتحصل على أي فترة راحة.

قالت: «الأمر يقودني للجنون، إنه يرفض استخدام سماعات الأذن».

كانت تصحبني بسيارتها إلى مقبرة تووانغ صوب رخامة آل موراي. كنت أضع الصندوق بيجي اللون في حضني وأحضرتْ جيني حفنة زنبقات بيضاء مع مزهرية.

قالت جيني: «كانت أمك تقول دائمًا إنها، من بيننا نحن الفتيات الثلاث، كانت هي المحظوظة. تزوجنا برجلين كانا محتملين، ولكنها تزوجت من رجل لم يكن محتملًا، وهو ما أعطاها سببًا للرحيل. ومع ذلك ما زلتُ أعتقد أنها كانت شجاعة جدًا».

«لا أعتقد أنها شعرتْ بأنها شجاعة»، قلتُ، متذكرة كم استغرقتْ أمي من الوقت لإنهاء زواجها. سنوات وسنوات من المصالحة والتراجع قبل أن تتخذ القرار في نهاية المطاف.

«هل يعرف أبوك أنها ماتت؟» قالت جيني.

«فيما يبدو لم يستوعب الأمر بعد»، قلت، مرددة ما أخبرني به بين. في ذلك الوقت، انقطعت علاقتي تمامًا بأبي. كان ذلك نتيجة لأشياء عديدة: الطلاق، وتدهور الحالة العقلية لأبي حينها، ورغبتي في حماية شِن والصبيين من تجاوزاته السيئة، ومرضي. لكن بين كان يذهب أحيانًا مع إليوت لزيارة أبي في دار العجزة في سيدني، ومن ثم ينقل أخبارًا عن حالة أبي لي. «لقد فقد عقله تمامًا».

قالت جيني: «قالت لي أنها أرادت أن تعيش أطول منه. حتى لو بيوم واحد».

قلت: «ليس هناك إله».

***

لم يسبق لي أبدًا أن حضرت جنازة يابانية، ولكن الأصدقاء يخبرونني أن هناك طقسًا تقليديًا يتم بعد حرق الجثة حيث يقوم أصحاب المأتم بتقليب رماد الميت بأعواد معدنية خاصة، ويلتقطون قطعًا من العظام لتفحصها عن قرب، ويتم قراءة علامات، ولست أدري إن كان ذلك يتعلق بالمصير أو الشخصية، ولكن من الواضح أن الطقس يمكن أن يكون مرحًا - بعض التعليقات عن المتوفى تثير الضحك، سواء أكان ذلك عن قصد أم لا. على أي حال، أتصور أن الطقس مفيد. أتخيل أن أصحاب المأتم يستمدون الراحة من فعل الحميمية الأخير هذا مع شخص فقدوه. وإنني لآسفة جدًا لأنني لم أفكر بفعل شيء مشابه قبل دفن رماد أمنا، شيء لجعل المناسبة أكثر ملاءمة.

وكما حدث الأمر، وقفنا جيني وأنا وراقبنا اثنين من العمال وهما يحفران حفرة لدى زاوية لوح الرخام الرمادي عند قاعدة

آل موراي. كانت الأرض قاسية جدًا بعد أسابيع وأسابيع من انقطاع المطر، ولكن العاملين واصلا الحفر حتى وصلا إلى عمق قدمين تقريبًا وعرض قدم واحد، بما يكفي لوضع الصندوق بيجي اللون. سلمته إلى واحد من العاملين، فوضعه في الحفرة، وراح زميله يحثو التراب عليه ويسوي المكان بظهر المسحاة. شكرناهما فغادرا، وهذا كان كل شيء. جيني وأنا لم نقل شيئًا، لم نتل صلاة، ولا شيء رسميًا، فقط توقفنا لترتيب الزنابق في المزهرية، قبل أن نقول وداعًا لأمي كما لو أننا كنا نغادرها للحظة، للذهاب قريبًا لتناول القهوة. لم نكن نعرف ما نفعله غير ذلك. حين أفكر في الأمر الآن، أتمنى لو أنني على الأقل أفرغتُ رماد أمي في الحفرة حتى يختلط بالتراب، بدل تركه في الصندوق. ولكنني لم أفعل، وأنا آسفة لذلك.

لم أعد لزيارة القبر سوى مرة واحدة منذ ذلك الحين، بعد أن فرغ النحاتون من نحت نقش أمي. اسمها كان: إيفريل ماري تايلر (اسم ولادتها موراي)، عاشت بين عامي ١٩٢١-٢٠٠٨، ولكنني لم أحس بأنها كانت هناك، ولم تكن لدي رغبة بالحديث معها أو إطلاعها على ما استجد من أخباري. وفي حقيقة الأمر، كان لدي شعور قوي أنها غادرت المشهد منذ أمد طويل وأن

سؤال مكان انتمائها في الموت كان لا يزال مفتوحًا على اتساعه. وأدركتُ أن هذا ربما لم يكن أكثر من كونه الثمن الذي كان عليها دفعه لابتعادها كثيرًا عن المكان الذي ولدت فيه، وأنه في مرحلة ما كان ثمة نقطة لم يعد خيار الانتمـاء مطروحًا بعدها. قارورة الدواء الملأى بالتراب لم تكن سوى محاولة اقتراب من الوطن، وليس الشيء الحقيقي، كما أن دفني لرمادها لم يكن سوى إلماحًا إلى الانتماء، وهو إلماح كُتب عليه أن يفشل.

* * *

اسم أبي كان ليزلي غوردن تايلر، ولكن الجميع كانوا يعرفونه باسم غوردن أو إل. جي.، ونحن الأطفال كنا نسميه أحيانًا كابتن تايلر. لم أعرف أبدًا من أين جاء لأنه أبقى الأمر سرًا. حتى أمي لم تكن تعرف على وجه اليقين. ووفقًـا لها، فإن رواية أبي عن ماضيه تعددت واختلفت كثيرًا بحيث لم يكن بوسعها التأكد إن كان يقول الحقيقة أو متى كان ذلك. كان معروفًا أنه نشأ في مكان ما في سيدني، ولكنه لم يأخذنا أبدًا لنرى منزل طفولته، أو للقاء أسرته، ولم يكن والداه يزوراننا إلا نادرًا إبان نشأتي، وبالتأكيد ليسَ بما يكفي لترك انطباع دائم. حتى أنني لا أستطيع الآن تذكر شكليهما.

وإذا ما تحدث عن فترة صباه على الإطلاق فذلك ليقول كم أنه كان تعيسًا، حيث كان محشورًا في منزل صغير جدًا من منازل الضواحي مع أم وأب لم يكونا يفهمانه، ولم يكن له أخوة أو أخوات ليتشاطروا معه مأساته. كان يقول إن والده متنمر وإن والدته مغلوبة على أمرها، وإنه تركهما وغادر المنزل حين كان في الخامسة عشرة من عمره، دون أن يرجع أبدًا. كان غامضًا بشأن ما حدث لاحقًا. كانت هناك وظيفة الراعي عند أحد ملاك الأراضي الفيكتوريين الأثرياء، والتي أوقدت شعلة ولعه بالخيول، وحيث ربما اكتسب تصنعاته الارستقراطية - تدخين السيجار والولع بالملابس المحاكة - على الرغم من أن هذه الأشياء ربما اكتُسبت لاحقًا، في سلاح الجو، حيث تشكلت شخصيته بشكل حقيقي، وحيث أطلق شاربه المعكوف الذي كان علامة له.

كان غامضًا بشأن حربه كما كان غامضًا بشأن طفولته. وسلاح الجو إذا ما شئنا البدء به: كان من الواضح أنه المكان الذي شهد بداية شغفه بالطيران، وحيث برزت مشكلته مع السلطة بشكل جلي. لم يقل أبدًا لماذا طرد، فقط أن ذلك ربما أنقذ حياته، خاصة أن عديدًا من المتدربين قد فقدوا حياتهم ومزقوا تمزيقًا في الطلعات الهجومية على ألمانيا. بعد ذلك حالفه الحظ بكل

بساطة، قال: في أحد الأيام صادف ضابط توظيف للجيش البريطاني في الهند، الذي أقنعه على الفور للالتحاق بمدرسة الضباط. انتقل من فوره إلى الهند لتلقي التدريب. وبعد ستة أشهر، وبعد انتهاء فترة تدريبه، توقع أن يعبر إلى بورما ليحارب اليابانيين، لكنهم استسلموا قبل أن يتمكن من إعداد حقيبته. لم أكن واثقة أبدًا إن كان سعيدًا بذلك، أو ساخطًا منه، لأنه حرمه من الفرصة ليثبت نفسه في ساحة القتال. على أي حال، نهاية الحرب جعلته ينتقل مرة أخرى إلى أستراليا وقد انتابه قلق من بدء مسيرته المهنية في الطيران المدني بأسرع ما يمكن، بما أن الطيران كان شغفه الحقيقي.

لم يكن ذلك قرارًا هينًا. في الأيام الأولى، حين كان أبي في المراحل الأولية، كان الأمر يعج بالمخاطر، وبدا أنه كان يستمتع بها جميعًا. بالإضافة إلى السفر، لم يكن قادرًا على البقاء في مكان واحد أو في نفس الوظيفة لأكثر من عام أو عامين. بدا أنه في حالة سرمدية من الامتعاض الشديد حول الطريقة غير المهنية التي كانت تُدار بها الخطوط الجوية، وحول أولوية الضغوط التجارية على كل شيء آخر. خاض في صراع مع كل من عمل معهم تقريبًا. وكنتيجة لذلك، عشنا مثل الغجر، وكنا في حالة

انتقال دائمة من مكان إلى مكان، وهو ما ناسب أبي تمامًا. كان في أفضل حالاته حين يكون في حالة انتقال. لم يكن يقلقه إن كان علينا تغيير المدارس مرة أخرى، وأن نترك الأصدقاء والجيران، وأن نضطر للتكيف مع أجواء جديدة بشكل متكرر. بدا أن أي شيء أفضل من الاستقرار في ضاحية جرداء مثل تلك التي فر منها حين كان مراهقًا. ذاك كان كابوس أبي، الشيء الذي يخشاه أكثر من أي شيء آخر. أعتقد أنه كان يؤثر الموت على أن ينتهي به المطاف في مكان مثل المكان الذي بدأ منه.

كان في السبعينات من عمره قبل أن يبدأ في تفحص بداياته بشيء من رباطة الجأش. إبان نشأته، كان ينتابه شك دائم بأن أمه وأباه، بالنظر إلى تقصيرهما، لم يكونا والديه الحقيقيين. تذكّرَ شخصين آخرين، كانا يزوران المنزل بشكل دوري، وكانا يقدمان من غلاسكو وكانت تحيط بهما هالة من دماثة العالم القديم، مما يقصر أمه وأبوه عنه. وعلى أمل أن يثبت نظريته، بلا شك، اختارهما بوصفهما المقلع الأول في بحثه الجينولوجي.

«كانا يدعيان آل أوكينكلوس»، أخبرني أبي. «هناك خمسة منهم في دليل غلاسكو الهاتفي. لا بد أننا على قرابة».

سافر إلى غلاسكو، حيث اكتشف الحقيقة، التي لم تكن كما آمل أن تكون. لم يكونا والديه، بل أقارب والده من خلال الزواج. ووالده لم يكن كما ادعى؛ فجدي الذي تعود أصوله إلى أيرلندا قد فر من منزل متسم بالعنف في سن الرابعة عشرة أو قريبًا منها، وانتهى به المطاف في غلاسكو، حيث غير اسمه من أونيل إلى تايلر. تبنته إحـدى العمات، وبعد ذلك بفتـرة قصيرة انضم إلى سلاح البحرية وبدأ في السـفر حول العالم، لينتهي به المطاف في سيدني.

قال أبي: «لم أعرف أي شيء من هذا أبدًا. كنتُ لأكنَّ له قدرًا أكبر من الاحترام لو أنني عرفت ذلك».

أراني صورة رمادية صغيرة لجدي وهو ينظف سطح إحدى السفن.

«كان محض صبي»، قال، وتلك كانت أول كلمة لطيفة أسمعها منه عن والده.

أمضى أبي أسبوعًا في غلاسكو التقى فيه أقارب لم يعرفهم من قبل قـط، وعاد متغيرًا. سـيكون من المبالغة القـول إنه كان مطمئنًـا وراضيًـا - فهو مـا كان كذلك قـط - ولكـن كان هناك

إحساس بأنه قد تخلص من بعض أشباح الماضي وأنه قرر ألا يفرط في مسعاه. كان هناك أيضًا شيء من الاعتراف بالثمن الذي دفعناه جميعًا مقابل إصراره على التنقل الدائم.

قال لي: «لقد كان ذلك صعبًا على أمك. لست ألومها حينما قررت إنهاء العلاقة».

كتب إليها طالبًا منها المغفرة، لكنها لم ترد عليه، وإنني لعلى ثقة أنها حينئذ قد استنفدت كل قدراتها على التعاطف مع أبي.

ربما ابتدأت الدوامة التي جرّت أبي إلى الخرف الشديد في نفس الفترة التي تعرّضت لها أمي. كان ينبغي أن أتعرف على العلامات، لكنني لم أكن أراه إلا نادرًا مما يجعل من الصعب ملاحظة سلسلة التغيرات. حينها كان يعيش في كانبيرا، حيث شهدت آخر الوظائف التي التحق بها وهي فارز البريد للبريد الأسترالي، والآن يعيش على تقاعد متواضع في نزل للعمال العموميين. ذهبتُ لزيارته هناك عدة مرات، وقد زرناه شِن وأنا والولدان في طريقنا إلى الثلج في إحدى العطلات. وبين فترة وأخرى، كان يزورنا في بريسبين، وبعد إلقائه التحية كان يقول إنه كان في الجوار.

كان يُحضر معه كيسًـا أو اثنين من أكياس التسـوق، ويقول: «لم أرد لهذه الأشياء أن تتعفن في غرفتي وأنا بعيد عنها».

كان يعطي الولدين مجلدات من مكتبته عن الطيارات وتاريخ الطيـران وكان ينزعـج حين لا يبديـان امتنانًـا ملائمًـا، ويقول: «سأعيدها من حيث جئتُ بها إن لم تكونوا راغبين بها».

وبقدر ما كان يستمتع بتزجية الوقت معنا جميعًا، إلا أنه في حقيقة الأمر كان في بريسبين ليرى أمي. في ذلك الوقت كانت تقطن في وحدة سكنية مسـتقلة تبعد مسافة قصيرة عن المنزل. وبمجرد مرور دقائق من وصوله كان يأتي على ذكر اسمها.

كان يقول: «كيف هو حال إيف؟»

«بخير».

«لم ترد على رسالتي الأخيرة».

«سبب ذلك على الأرجح أنك طلبت منها مالًا».

كنتُ أعرف ذلك لأني أمي كانت تطلعني دائمًا على رسائله، أو تقرأها بصوتٍ عالٍ لي، وغضبها يتعاظم. مر خمسة وعشرون عامًا على طلاقهما وما زال أبي يحاول أن ينال المال بالحيلة من أمي قدر ما يستطيع.

قالت: «لن يتوقف إلا إذا مت». اقترح في رسالة رسمية مؤلمة أن توصي بوحدتها السكنية له، عارضًا دفع نصف التكاليف القانونية التي قد يتطلبها هذا الأمر.

أعتقد الآن أن هذا الهوس بالمال كان علامة على التوعك الأعمق الذي كان على وشك الإحاطة به. ولكن في ذلك الوقت لم أكن أراه إلا انتقامًا، فهو لم يغفر لأمي طلاقها منه. كان يبغض استقلالها المادي الذي اكتسبته بجدارة. كان دائم التهكم من وظيفتها: التعليم في المدارس كان ينتمي للطبقة الوسطى بشكل مريع. لقد حولها من المغامرة التي وقع في غرامها إلى شخصية محافظة من الضواحي. وبالرجوع إلى الماضي، بدا واضحًا أنه شعر بالظلم لكون أمي امتلكت مالًا من أسرتها في حين لم يتحقق له ذلك، على الرغم من أن مالها ذاك، كما أشارت، هو ما جعل تجواله المتحرر ممكنًا.

«لهذا السبب تزوج مني»، قالت لي أمي. «كنتُ المصدر الذي يدرُّ عليه المال».

استمر وصول الرسائل على نحو أكثر ترددًا وتكرارًا، وكانت سببًا لإزعاج أمي أكثر فأكثر. لم تكن جميعها رسائل تسول؛

بعضها تضمنت أخبارًا واحتوت على قصاصات اعتقد أنها ربما لم ترها في الصحف. بعضها كانت هذيانات تعبر عن الندم بشأن زواجهما وكيف أنه كان من الممكن إنقاذه. ولكن بعد ذلك كان ثمة مطالب أخرى بمزيد من المال. «الخمسة وعشرون ألفًا التي حسب حساباتي لا زلتِ تدينين لي بها. بعد هذا سأتوقف».

وبحماقة قررتُ أن أتدخل. اتصلتُ بأبي وطلبت منه أن يكفَّ أذاه. لم تكن ردة فعله جيدة. كان هناك صراخ على الهاتف، وكثير منه تضمن شتائم. استعدتُ، وأنا أستمع إليه، سنوات مراهقتي حين كان مثل هذا النوع من الصراخ مألوفًا. تسارع نبض قلبي كما كان يفعل من قبل حينها، وصار جسدي كله يرتجف. كنتُ أستطيع تخيل وجهه ينقلب إلى اللون الأحمر من الغضب في الجانب الآخر من خط الهاتف، في الوقت الذي كان ينفث فيه انتقاداته اللاذعة السامة.

قال: «أنتِ محبة للمال لا تحبين سوى نفسك وتريدين الاستئثار بالمال لنفسك، وأنت تنظرين لي بوصفي منافسًا لك».

وحين لم يعد بمقدوري الاستماع إلى مزيد من تهجمه اللاذع أغلقتُ السماعة، آملة أن يكون هذا آخر اتصال به.

ولكنه لـم يكن كذلك. فعلى مـدى الشـهور القليلة اللاحقة كتب أبي لي سلسلة من الرسائل البعيدة كل البعد عن المنطق. كان يهدد برفع قضية عليّ في المحكمة إن لم أسـمح له برؤية حفيديه، على الرغم من حقيقة أنني لم أمنعه أبدًا من الزيارة ولم تكن لدي نية لفعل ذلك. ولكن ذاك لم يكن سوى خدعة: فهو كان يحب أن يهدد الناس بالقانون. فعلى مدى سنوات خاض معركة مـع وزارة الطيـران حول قـرار يتعلق بترخيـص الطيران الخاص به. فقد كان يقول، مع بعـض التبرير، إن حياته المهنية قد انتهت بسـبب نزوة بيروقراطية. إن «قضيته» كما سماها، قد جعلت منه محاميًـا هاويًا، بشـهية محام لخـوض المعارك. لم أكلف نفسي عناء الرد على رسائله، وفي نهاية المطاف توقفتُ. ولكن لم تتوقف الرسائل الرسـمية إلى أمي. فكل بضعة أشهر كانت هناك رسالة. وفي أحد الأيام توقفتْ أمي ببساطة عن فتحها وصارت ترمي بالمظاريف مباشرة في سلة المهملات مع البريد غير المهم الآخر.

المرة الأخيرة التي رأيت فيها أبي كانت فـي منزل أخي في «إيست بلاكسلاند». كان أبي قد خرج منذ فترة قصيرة من عيادة الطب النفسي في كانبيرا، حيث كان يعالج من الاكتئاب. وعلى

النقيض من توصية طبيبه، حاول أن يتخلص من استخدام مضاد الاكتئاب الذي كان يتعاطاه؛ وهذا ما تسبب في إصابته باكتئاب حاد أكثر سوءًا من أي شيء عانى منه من قبل. في منتصف الليل اتصل بإليوت ليذهب ويأخذه. قاد أخي سيارته من «بلو ماونتينز» خلال الليل إلى كانبيرا وعاد مرة أخرى، ثم إلى العمل في المدينة في اليوم التالي. وبعد أن اتصل بي، اتصلت بأختي.

قلتُ: «ينبغي أن نذهب».

«كلا شكرًا».

توقعتُ ذلك. كانت علاقة سارة بأبي أسوأ من علاقتي به، تاريخ من العداء المتبادل الذي يمتد لعقود مضت.

طرتُ إلى سيدني وركبت القطار إلى «بلو ماونتنز». كان أبي ينتظر على المنصة، أشعثَ غير حليق الذقن، وسعيدًا لرؤيتي. احتضنني بمودة، كما لو أن شيئًا ما لم يحدث بيننا. شهدتُ مثل هذا الأمر كثيرًا في الماضي. كان يستطيع محو فصول كاملة من سجل الماضي ويتظاهر أنها لم تحدث؛ سواء أكان ذلك محسوبًا أم نسَيانًا حقيقيًا. لم أستطع معرفة ذلك أبدًا. وصار الأمر صعبًا أكثر الآن وقد بات عقله مشوشًا. بعد أن توقفنا عند الجزار لشراء

بعض الستيك، أخذني إلى بيت إليوت، وهو بيت صغير أنيق من طابق واحد اشتراه أخي ليكون قريبًا من بيت طليقته - ومن بين، الذي كان تلميذ مدرسة حينها. وللساعات القليلة التالية لم يتوقف أبي عن الكلام معي.

لم يكن هناك شيء جديد، وقائع الويلات التي رأيتها تحدث أمام ناظريّ طوال حياتي، الدراما العظيمة لصعود أبي وسقوطه، وهو ما كنا شهودًا عليه أجمعين سواء شئنا ذلك أم أبيناه. يخجلني القول إنني لم أستمع جيدًا. كنتُ جائعة، وفيما عدا الستيك، لم يكن هناك طعام في البيت. كنت أشعر بالبرد ولم أكن أعرف كيف تعمل التدفئة. كنت متعبة ولم أعرف المكان الذي كان يُفترض بي النوم فيه تلك الليلة باعتبار أن كلتا غرفتي النوم لم تكونا شاغرتين. وحين أدرتُ نظري في مطبخ أخي، صدمني ما يمكن للمرء الشعور به من الوحدة، حين لم يكن أحد آخر هناك، وحين يكون بين مع أمه.

قال أبي: «أخوك أنقذ حياتي. لَكُنتُ في عداد الموتى لولاه».

على الأرجح أن ذاك كان صحيحًا. كنتُ أعرف أن أبي يمتلك سلاحًا. الآن أخبرني بذلك، الشهر الماضي ذهب إلى عيادة

الطب النفسي، وكان قد أخذ السلاح ليتم تنظيفه ولم يعد لأخذه أبدًا.

قال أبي: «كنت أخشى ما يمكنني فعله به».

لم أكن أستطيع البقاء سوى ليلة واحدة. كان شِن يحتاجني في البيت؛ على الأقل هذا ما قلته لأبي. الحقيقة هي أنني أردتُ الابتعاد بأسرع ما يمكنني، وأن أعود إلى ولديّ. لم يكن الخطر يتهدد أبي. كان يتناول الجرعة الصحيحة من علاجه ويتحسن كل يوم. حين لم يكن يتكلم، كان يغط في النوم، لذا لم يكن هناك الكثير مما أساعد به بطريقة عملية، وصار يبذل جهدًا للاستحمام الآن، لذا فقد كانت تلك علامة جيدة.

«كيف حالك؟» سألتُ شقيقي فور وصوله إلى البيت من العمل، آملة في فتح حوار عن حياته. كان ذلك بعد العشاء وقد ذهب أبي إلى فراشه. بدا شقيقي منهكًا من قلة النوم.

«بخير».

«كيف كان العمل اليوم؟»

«العمل جيد».

«هل بين سعيد؟»

قال: «ماذا تعني سعيد؟»

وهناك انتهى الحوار، لأنه كان قاسيًا جدًا. لم يسبق لنا الحديث معًا عن حياتنا، لذا فلماذا نكلف أنفسنا عناء البدء بذلك؟ ولكنني لا أستطيع منع نفسي من التفكير كم كان سيفيد ذلك. كانت لدينا، سارة وإليوت وأنا، مشكلة. كِلا والدينا كانا يتقدمان في السن بشكل سيء. ولم يكن من المرجح تحسن الأمور بالنسبة لهما، أو بالنسبة لنا. كان من المفيد العثور على خطة ما معًا، حتى لو لم تكن سوى وعد بالبقاء على اتصال وتبادل أطراف الحديث حول ما يخصنا من أشياء، وأن نحافظ على معنويات بعضنا بعضًا مرتفعة. ولكن لسبب ما حتى ذلك كان عصيًا علينا. بدا أننا متورطون في المأزق القديم نفسه. كان وضعنا الطبيعي هو الصمت، ولكن ليس من النوع الذي ينم عن تناغم ما. الصمت بالنسبة لنا كان شكلًا من أشكال الاتهام، وتعبيرًا عن خيبة الأمل المتبادلة والغضب، وبديلًا عن العنف.

كان قطاري يغادر وقت الغداء. أبي وأنا تناولنا شطيرة في أحد المقاهي بالقرب من المحطة. كان من الجيد رؤية أنه لم

يفقد شهيته. كان يأكل ويتحدث في الوقت نفسه، مُوقعًا نتفًا من الطعام على الطاولة دون أن يلاحظ ذلك، وكان يطلب مزيدًا من القهوة بما لا يلائم وضعه الصحي. حكى لي قصصًا عن بعض الطيارين المتهورين الذين عرفهم خلال حياته، وواحد منهم أو اثنان ماتوا في حوادث تصادم مريعة. كان يتحدث عنهم بحزن، كما لو أن هـذه هي الطريقـة الصحيحـة للمـوت. كان من غير المجدي محاولة مقاطعة تدفقه في الحديث. تناولت شطيرتي، ونظرت إلى ساعتي وتساءلت عن مغزى كل هذا الحديث. لم يكن الحديث موجهًا لي. كان يمكن أن أكون أي شخص جالس هناك، شخص غريب تمامًا في حقيقة الأمر، بالنسبة لكل الاهتمام الذي أظهره بردود فعلي. افترضتُ أن ذلك كان جزءًا من مرضه، هذه اللامبالاة التامة بالتأثير الذي كان له على الآخرين. ولكن حتى في أفضل الأوقات كان انصباب اهتمامه على ذاته ذا طابع ملحمي. ولربما جعل اكتئابُهُ حالتَهُ أسوأ مما هي عليه، ولكنني أشك أنه كان السبب الرئيس.

«يحسن بي الذهاب».

«بهذه السرعة؟»

عبرنا الطريق نحو المحطة، وكان أبي لا يزال في الثياب التي نام فيها. تبادلنا الأحضان على المنصة. أزلتُ بعض فتات الخبز من على سترته. لوّح لي حين تحرك قطاري، وتلك كانت آخر مرة أراه فيها.

في الوقت الذي مات فيه، كانت المواقف قد تصلبت بشكل كبير من جميع الأطراف. كان هناك الرسائل إلى أمي والصراخ على الهاتف معي، وكانت هناك مواجهة مع أختي بدأت كدردشة ودية وانتهت كمشادة كلامية. في نهاية المطاف، كان أخي هو آخر الصامدين، الوحيد بيننا الذي ما يزال محافظًا على وسامة أبي، والشخص الذي كان يعتمد عليه ليمده بالعون. لم يكن الأمر سهلًا عليهما. أعرف تمامًا ما يعنيه الخرف من مراقبتي لتدهور حالة أمي. أستطيع فقط تخيل أن شقيقي كان شاهدًا على حالة التدهور ذاتها لدى أبي، في نفس الفترة الزمنية تقريبًا، رغم أن إليوت لم يكن يفضي بشيء أبدًا. بل إنه لم يتصل بي ليخبرني أن أبانا قد توفي. اكتشفت ذلك لاحقًا، في ٢٠١٠، من جيني، التي كانت تحب الاتصال بي بين الحين والآخر لتطّلع على آخر أخباري، ولكي تخبرني كم أنها تشتاق لأمي.

قالت: «أحزنني ما سمعته عن جوردن».

«المعذرة؟»

«لقد مات».

«متى؟»

«قبل ثلاثة أشهر. لا بد أنك كنت في اليابان».

«كانت سارة لتخبرني».

«سمعتُ الخبر من موراي».

موراي كان ابن عمي. كان هو وإليوت يلتقيان ببعضهما بعضًا في سيدني. بين أخبرني أن موراي وإليوت كانا يلعبان التنس معًا أحيانًا.

اتصلتُ بسارة من فوري.

قلتُ: «أبي مات».

«لا بد أنك تمزحين».

كانت متشككة مثلي، ليس فيما يتعلق بموت أبي، الذي كنا نتوقَعه، بل فيما يتعلق بحقيقة أن هذه الحقيقة استغرقتْ وقتًا طويلًا لتصل إلينا.

لم يكن هناك مأتم على قدر معرفتي. مصدر معرفتي الوحيد بتلك المسائل كان بين الذي لم يأت على ذكر أي خطط. ولكنه أخبرني، بعد ذلك بفترة طويلة، بما حدث لرماد أبي.

قال: «امتطى والدي حصانًا في متنزه جبل كوسيياسكو الوطني، ونثر الرماد هناك».

قلتُ: «خيار مثير للاهتمام».

كنت أشعر بالارتباك إزاء الطريقة التي يتعامل فيها إليوت مع الأمور، متخذًا قرارات وحده فيما يخص أمرًا يرتبط بنا جميعًا. أعرف أن لديه أسبابه. وأنا على يقين أنه كان يعتقد أننا سارة وأنا قد هجرنا أبانا، وهو ما حدث بمعنى من المعاني، ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد سنين من إثارة الغضب. والحقيقة هي أن أبي لم يكن يحبنا نحن الفتيات: كلانا عرفنا ذلك، ومع مرور الوقت وصلنا إلى نتيجة مؤداها أننا لم نكن نحبه بدورنا. شعرتُ بقدر كبير من الحزن أيضًا، فهذه فرصة أخرى ضائعة لشقيقي وشقيقتي ولي للوصول إلى نوع من التصالح بعد كل سنين التأزم والصراع، لندفن أخيرًا كل مرارات علاقة الزواج العاصفة التي جمعت بين والدينا ولكي نعيش بسلام مع بعضنا بعضًا. تخيلتُ إليوت واقفًا وحده بين شجر الأكالبتوس وهو ينثر أبانا على الأرض عند

قدميه، في حين كان حصانه يقضم بشراهة عشب الألباين.

لمدة عام أو نحوه، حين كنت تلميذة في المرحلة الابتدائية، كان أبي ينقل المؤن بالطائرات إلى «سنوي ماونتنز». كان مقر عمله في «كوما»، وكان يقيم هناك في ثكنات إحدى الشركات خلال أيام الأسبوع. وفي ليلة كل جمعة كان يقود سيارته إلى كانبيرا حيث كانت أمي تعمل في التدريس في المرحلة الثانوية. بدا أنه كان مستمتعًا بحياته، على الأقل لفترة قصيرة. قال إن الثكنات ذكرته بحياة سلاح الطيران، وقد راق له الرجال الذين عمل معهم في الوظيفة.

قال لي: «إنهم شبان رائعون. من كل أرجاء أوروبا. خليط أشبه بأحد اجتماعات الأمم المتحدة».

أعطاني كتابًا مصورًا عن السد الذي كان الرجال يبنونه وعن عجائب الطاقة المائية.

لا أدري لماذا غادر «كوما» سريعًا. ربما كانت مشاوير الذهاب والإياب بالسيارة، ربما كان بسبب طقس الشتاء الذي بات قريبًا. وحسَب قوله يمكن أن يكون الوضع مزريًا وخطيرًا في الجبال الشاهقة.

قال: «لا تعرفين علـى وجه اليقين ما أنـت مقدمة عليه حين تنطلقين في الصباح، إذ يمكن أن تتغير الأجواء بسرعة فائقة».

ربمـا كان قلقه السـرمدي، ممزوجًا بعرض وظيفـة لا يقاوم للعمل في خطوط الطيران في فيجي.

قال لنا: «إنه حلم يتحقق. فرص مثل هذه لا تتوفر كثيرًا».

وهكذا ذهبنا إلى فيجي، على الأقـل ثلاثة منا ذهبوا. إليوت وسارة بقيا في سيدني في مدرستين داخليتين، وهو أمر لا يداخلني الشـك في أنهما أبغضاه لما تبقى مـن حياتيهما، وهـو ما كنتُ سأفعله أيضًا، لو أنه حصل لي.

لو كان الخيار لي لما نُثر رماد أبي في الجبال. فباستثناء ذاك العام، فهو لـم يقض مزيدًا من الوقت حول جبل كوسيياسـكو. لـم يكن ذاك المكان وطنًا له بكل تأكيد، كما لـم تكن «سيدونا» وطنًا له، أو «آرميديل»، في «نيو ساوث ويلز»، حيث أقمنا لفترة من الزمن، أو «سوفا»، أو نيروبي، أو أي مكان آخر من الأماكن التي تبعناه فيها على مدى السنين. الحقيقة هي أنه لـم يكن لديه وطن. أكثر مكان اقترب فيه من الوصول إلى وطن ربما كان في غلاسكو، ولكن حينها كان الوقت قد تأخر كثيرًا لإحداث فارق

ما. وإن كان السؤال حول أي مكان كان يشعر فيه بسعادة أكبر، فسأخمن أن ذلك في قمرة القيادة في طائرة تحلق في مكان ما فوق المحيط الهادي. كان يحب أن يشرح لي معنى نقطة اللاعودة.

قال لي: «إن كنت أحلق بين «نـادي» و، لنقل، «بورت فيلا»، فأنا في نقطة اللاعودة حيث أمتلك من الوقود ما يكفي للوصول إلى «بورت فيلا» ولكن ليس ما يكفي للعودة إلى «نادي». وفي هذه الحالة، يحسن بي أن أكون قد قرأت الجداول والرسوم البيانية جيدًا وأن تكون «بورت فيلا» في المكان الذي أحسبها فيه».

الحديث عن قطع المحيط الهادي جيئة وذهابًا كان يوقد شعلة النشاط لدى أبي بطريقة لم يكن لأي شيء آخر أن يفعله. الحياة على الأرض كانت عمـلًا روتينيًا بالمقارنة، شـيئًا يكابده المرء حتى يحين الوقت للإقلاع مرة أخرى. لو كان الأمر بيدي لربما نثرتُ رماد أبي من على متن طائرة خفيفة في منتصف الرحلة، في مكان ما على البحر، حيث يمكن لرماده أن يكون في مهب تيارات الريح لفترة من الزمن ومن ثم يتبعثر فوق الأمواج. من يعرف أين سينتهي به المطاف حينها، في قطع ونتف صغيرة تنبث في أي مكان وفي كل مكان.

***

لست واثقة عما أريد أن يكون مصير رمادي. مشكلتي أنني، مثل أبي، أمضيتُ حياتي في تنقُّل دائم، لذا فلستُ واثقة بشأن المكان الذي يصح أن أطلق عليه وطني. في الماضي، كلما سألني أحد من أين أنت، كنتُ أواجه صعوبة في الوصول إلى جواب؛ فأقول: «ولدتُ في كوينزلاند. ولكننا غادرنا حين كنتُ طفلة».

كما لو أن ذلك يعني أي شيء. فقط أن أمي عادت إلى كوينزلاند لتلد كل أطفالها، لأن أبي لم يكن موجودًا أبدًا ليُعنى بها. وأنا في حقيقة الأمر ولدت في مستشفى في «ساوثبورت»، حيث كان ريل ونورمان يملكان منزلًا يمكثان فيه في الصيف، وحيث كانت كل الأسر تجتمع للعطلات البحرية. أعادتني أمي إلى المنزل بعد ولادتي وكانت هناك ممرضة تعتني بنا، وهو ما يبدو بذخًا الآن، لكن تلك السنوات كانت سنوات ازدهار في تجارة الصوف ومثل تلك الرفاهية لم تبد غير مألوفة. لا أعرف أين كان أبي حينئذ، أظن أنه كان يعمل لدى خطوط ترانز أستراليا، خارج سيدني. أو ربما كان قد ترك للتو العمل في «تي أيه أيه» والتحق بوظيفة رش المبيدات في «آرميديل». على أي حال، لا أحتفظ بأي ذكرى عن «ساوثبورت»، لذا لا يمكن أن تعد وطنًا. بل إنني

لا أدري لماذا أذكرها حين يوجه لي السؤال، فقط لأن عليك أن تبدأ حكايتك من مكان ما، وما حدث لاحقًا بالغ التعقيد والالتواء ليكون مصدر إزعاج لي.

ربما ينبغي لي القول على الأرجح أنني نشأتُ في سيارة، عابرة رقعة لا انتهاء لها من البلاد، بين بلدة بالكاد أذكرها، وأخرى لم أسمع بها قط. ما كنتُ أتذكره جيدًا هو السفر. عادة ما كانت أمي وراء المقود، حيث يكون أبي قد سبقنا. في ذاكرتي، كانت أمي هي من تخلي الأمتعة من كل البيوت، وتضع أشياءنا في السيارة، وترسل الحيوانات الأليفة إلى المزرعة، ثم تنطلق بابتهاج على الطريق والأمل يحدوها أن هذه هي المرة الأخيرة، المرة التي قد نستقر فيها. ولكن ذلك ما كان ليتحقق، على الأقل ليس على مدى بضعة سنوات.

لبرهة من الزمن، أصبحت كانبيرا هي الوطن، ليس في المحاولة الأولى، ولا حتى في الثانية، بل في المحاولة الثالثة، بعد سنة كارثية أمضيناها في كينيا، حيث كان أبي يعمل لصالح خطوط إيست أفريكان. تلك هي المرة التي أنهت فيها أمي كل شيء، حين كنتُ في الخامسة عشرة. في مسعى منها للمحافظة على الذات، مدّتْ جذورها عميقًا في الأرض وصرّحتْ بأن الكيل

قد طفح. قالت لي إنها لن تنتقل مرة أخرى. وتبين أن ذلك لم يكن صحيحًا، بالطبع، لأن كانبيرا كانت أصغر من أن تحويهما معًا فور طلاق والديّ. مكثنا هناك حتى أنهيتُ المدرسة والجامعة - بضع سنين فحسب، لكنها بدت مثل أبدية بالنسبة لي. وقد حدث أن تعلقتُ بالمكان، ليس المدينة الخانقة ذاتها، بل بالبيئة المتموجة الخالية حولها، والسماوات الشاسعة فوقها. حين كبرتُ بما يكفي، أخذتُ سيارة أمي وقدتها في كل تلك الطرقات الواسعة المتداخلة التي تأخذك إلى خارج البلدة، فقط لأرى الريف. ربما كانت تلك أنا في طريقي إلى الوطن، عائدة إلى رحلات الطفولة خلال أيام وليالٍ من السهوب البادية للعيان تحت قبة السماء.

ومع كل ذلك، لم أستطع الانتظار للخروج من المكان. حين غادرتُ إلى إنجلترا، ظننتُ أنني أبتعد ما وسعني ذلك عن الوطن. وعلى مدى السنوات القليلة التالية، استمررت في العودة إلى أستراليا - لأرى أمي، لكسب المال - ولكن الهرب ظل هدفي الأساس في الحياة، ولربما كان هدفي الوحيد، وإلا كيف أفسر التهور الذي دفع بي لركوب طائرة متوجهة إلى طوكيو في ١٩٨٢ دون أن تكون لدي خطة حقيقية في ذهني، سوى الفرار من

سيدني، المدينة التي قررتُ أنني لن أستطيع الانتماء إليها أبدًا. الآن أرى أن ذاك جاء نتيجة لما نشأتُ عليه: احزمي أمتعتك وارحلي، ولا تبالي بالعواقب.

العواقب، في هذه الحالة، كانت جيدة فقط، فقد سافرتُ من اليابان وإليها الآن لأكثر من ثلاثين عامًا. الزواج من شِن عنى لي تعلُّمَ كل ما يمكنني تعلمه عن المكان الذي جاء منه، ليس لمصلحتي فحسب، بل لمصلحة طفلينا. لم يكن الأمر سهلًا. فلأننا قررنا تعليم ولدينا في أستراليا لم أمض ما يكفي من الوقت بقدر ما تمنيتُ في اليابان، كما أنني لست متمكنة من اللغة بقدر ما أحببتُ أن أكون. ولكنني آمل أن أكون قد عوضتُ بحماستي واندفاعي ما فاتني وقصرتُ عنه بخبرتي ومعرفتي. هناك كثير مما يُحَبُّ في اليابان. ولو كان لي مستقر في اليابان فلا بد أن يكون في آريتا، مدينة البورسلان العتيقة. هناك الكثير من الأماكن في اليابان مما سأكون سعيدة جدًا بالعودة إليها. شيراكاوا، في طوكيو، حيث براعم كرز الربيع تتفجر في عاصفة زهرية اللون لدى أدنى هبوب للنسيم؛ ياناكا، في طوكيو، حيث الخلوات الضخمة والشوارع الضيقة العتيقة تلوح في منطقة مكتظة بتجار المدينة الصغار والبارات الحديثة؛ وماونت آسو حيث تستطيع

الجلوس في نبع ماء حار في الخارج وتشاهد الثلج يهطل على شـجر الأرز. في كل تلك الأماكن، وفي الكثير غيرها، تخيلتُ أن بوسعي توديع الحياة بسعادة فيها. وإذا لم تكن تلك الأماكن وطنًا لي، فهـي أماكن تركتْ بصمتها عليّ، وشـكلتْ مداركي، وخلقتْ صِلاتـي. وإذا ما اجتمعـتْ معًا، فإنها تحتـل في قلبي المكان الـذي يفترض أن يكون للوطن بالنسـبة لي، إن كان لي ثمة وطن.

عشنا شِن وأنا في بريسبين منذ ١٩٩٨ . ولدانا كبرا وذهبا إلى المدرسة هنا. أمي ماتت ودفنتْ هنا. أنا سأموتُ هنا أيضًا. ولكن الحقيقة هي أن بريسبين ليست وطني. لقد جئت متأخرة إلى هذه المدينة. وهي لا تزال تفاجئني بكونها مدينة غير محبوبة، وهي مدينة خام وخشنة للغاية لأخذها على محمل الجد. ومع ذلك فإن لها سحرها، وأنا أحب حقيقةَ أن شوارع الحي الذي سكنتُ فيه تذكرني طوال الوقت بطفليّ حينما كانا صغيرين، بأمي قبل وفاتها، بذاتـي في حياة سـابقة. إذن فأنـا متعلقة بالمـكان بهذه الطريقة، ولكن ليس بقدر تعلق أناس أعرفهم عاشوا هنا طوال حياتهم، ممن تشكل المدينة بالنسبة لهم جلدًا آخر. هذه ليست غلطة بريسبين، المسألة هي أن هناك مستوى من الانتماء الذي

لا أستطيع أن أطمح إليه ويتوجب عليّ أن أعيش بدونه.

في آريتا، حيث نمتلك بيتنا الآخر، يصنعون جرار عزاء جميلة من البورسلان. طلبت من شِن أن يزين واحدة منها لرمادي، مع الجماجم الضاحكة التي تميز برسمها، وأخبرته أن يبقيها معه حتى يكون مستعدًا ليتخلص مني. أما أين يبعثرني فيظل موضوعًا مفتوحًا للنقاش. كنا نتحدث دائمًا عن الانتقال إلى أوكيناوا معًا، لأنها جزء من اليابان لم يسبق لنا رؤيته قط.

قلتُ له: «ربما تأخذني هناك، أنت والصبيّان. تستطيع العثور على شاطئ بِكر في مكان ما وتقذف بي في البحر».

إنها مجرد فكرة واحدة بين أفكار عديدة، وهي ليست عملية جدًا، فلا أحد منا لديه أدنى صلة بأوكيناوا، لذا فلربما يكون هذا الأمر بلا مغزى، إن لم يكن مسيئًا تمامًا لأهل أوكيناوا، الذين يأخذون وطنهم على محمل الجد.

فكرة أخرى طرحناها تمثلت في تقسيم رمادي ورمي نصفه في نهر بريسبين. وبعد ذلك يستطيع شِن أن يأخذ النصف الآخر ويبعثره في الجدول الذي يجري في منتصف آريتا. ما يقلقني هو أن شِن قد يترك البلدة في وقت من الأوقات، ما إن ينتابه

الملل منهـا، وينتقل إلى مـكان آخر جديد، بالنظـر إلى جنوحه للترحل الدائـم. أفضل ما يؤيـد هذه الخطة من حجـج هو أنها ستشبع حاجة رمزية تعكس كيف كانت حياتي مقسمة بين أستراليا واليابان لثلاثة عقود.

ولو أنني تحريتُ الصدق، فإنني لا آبه حقًا بما سيكون عليه مصيري، لذا فربما لا أكون أفضل من يتخذ القرار بهذا الشأن. ولربما كان أفضل شـيء هو ترك الأمر لشِـن ولولدينـا ليقرروا بأنفسهم ما ينبغي فعله. وإنني لأفضل أن يصلوا إلى قرار يلائم احتياجاتهم ويمنحهم بعض الطمأنينة. وأنا على ثقة أنهم سيناقشون الأمر بتعقل لم نكن، سارة وإليوت وأنا، قادرين أبدًا على اتباع ما يمليه علينا. وأنا على ثقة أنهم سـيكونون معًا في اليوم الذي يتخلصون فيه من بقاياي، حتى يتاح لكل منهم أن يواسي الآخر. وإنني لأحضهم على الذهاب إلى بار معًا عقب ذلك والشعور بالحزن لفقدي وهم يحتسون الشراب، لأنني أعرف أن هذا ما كنتُ لأفعله، لو أنني كنتُ في مكانهم.

***

٣

نهايات وبدايات

يشرح المصور الفوتغرافي هيروشي سوغيموتو هوسَهُ بالبحر بوصفه مرتبطًا بذكرى مبكرة مرتبطة بأيام طفولته. إنه مسافر في قطار مع والديه. سكة الحديد تحتضن خط الساحل، داخلة سلسلة من الأنفاق القصيرة – ضوء، عتمة، ضوء، عتمة، ضوء، عتمة – وبعدئذ تخرج لتكشف عن البحر المشرق الممتد أمامه على مد البصر حتى يبلغ حدود الأفق. عند تلك النقطة، يدرك كما يزعمُ حقيقة ذاته. هذا أنا، هنا، الآن، وأنا أرى هذا المشهد – البحر، السماء، الشمس.

منذ سمعتُ هذه القصة لأول مر حاولتُ تذكر لحظتي الخاصة بإدراك حقيقة ذاتي. ليست تلك أولى ذكرياتي – استرجاع لا أهمية له للعب في الطين – بل الوقت الذي رأيتُ فيه طائر الكوكابورا وهو ينقض من أحد الأغصان على سقنقور ويبتلعه حيًا. هذا ما استخرجني من حالة اللاوعي. هذه أنا هنا، قلتُ لنفسي، وتلك أنت هناك، وحيث كان السقنقور ليس هناك شيء. يزعم سوغيموتو أيضًا أنه خاض تجربة الإحساس المسبق بالموت وذلك مباشرة بعد لحظة وعيه بوجوده، وأنا مستعدة لتصديقه، لأن هذا ما كنتُ أحس به أنا أيضًا. اختفاء السقنقور كان جليًا. تعيش الأشياء حتى لحظة موتها. يبدأ الوعي وبعدئذ ينتهي.

كيـف ينتهي هو أمـر أتبينه للتو. أسـتطيع فقـط الحديث عن نفسـي، بالطبع، وكل واحد يختلف عن الآخـر، ولكن الموت ببطء، كما أفعل أنا، يبدو مثل تراجع عن الوعي إلى النسيان الذي يسبقه. هذا التراجع يقوده الجسد، الذي يصبح أضعف فأضعف، متطلبًا قدرًا أقـل فأقل من الوقود وقدرًا أكبـر فأكبر من الراحة، حتى تصبح بضع خطى تقطعها ذهابًا وإيابًا بين غرفتك والحمام هي المجهود الذي تستطيع بذله في يوم واحد. لم أعد مصدومة بمدى الوهن الذي أشكو منه. جسدي حيوان يحتضر. إنه قبيح ومشـوه، وهو عبء أود أن ألقيه عن كاهلي لو تسنى لي ذلك. ولكن للجسد مواعيده الخاصة فيما يخص مسألة الموت، وطرقه الخاصة، ولا شيء من ذلك مما يدخل دائرة استيعابي له.

ما أدركه هو أن عالمي قد تضاءل إلى مساحة غرفتين، غرفة نومي وغرفة المعيشة، لأنني أقضي كل وقتي في هاتين الغرفتين. أنام في غرفة نومـي، أكتب وأقرأ وأشـاهد التلفزيـون في غرفة المعيشة. أنا أشبه بالطفل الرضيع الآن، باعتمادٍ تامٍّ على الآخرين. زوجي يقوم بكل التبضع والطبخ ويعتني بكل الأعمال الروتينية. ولديَ يساعد في قيادة السيارة، والذهاب إلى البنك، والاعتناء بالمنزل، وهو ما كنـتُ أقوم به حين كنت فـي صحة جيدة. في

الوقت نفسه، أستلقي وأحلم. أشبه ما أكون بطفل في الصباحات المبكرة حين أسمع غناء العصافير خارج النافذة لأول مرة. وذلك يعيدني إلى تجربة الكوكابورا ودرسي الأول عن الموت. وكلما أصبحتُ أكثر تيقظًا كلما تقتُ أكثر لحالة اللامعرفة التي خرجتُ منها حينئذ.

ينتمي طائر الكوكابورا إلى أول حديقة أتذكرها، بجوار غابة الأكالبتوس. المنزل كان في منطقة خالية من الأشجار ولكن كانت هناك أشجار صمغ سامقة في المقدمة والمؤخرة، لذا فقد بدا لي كما لو أننا كنا وسط الغابة دون أن ننفصل عنها. وبدا أن الغابة كانت في البيت، لأن الغرف كانت ملأى بروائح الغابة وأصواتها، ولأنني أحضرتُ الغابة معي إلى الداخل من ألعابي، وحلمتُ بها حين نمت.

حين كنتُ وحدي كنتُ ألعب في ظل هذه الأشجار الضخمة، داسةً العصيَّ حول الجذور بحثًا عن جلود الزيزان، طاعنة كتل النسغ الذهبي الذي كان ينزُّ من جذوع الأشجار، ومراقبة جيوش النمل التي كانت تتسلق الجذوع نحو الأغصان العالية. قشرّتُ اللحاء الممزق وبنيتُ بيوتًا للدويبات الصغيرة والحلزونات.

حين كان أخي وأختي في البيت كنتُ أذهب معهم في الدغل، مطاردين الكلب. كنتُ أعتبره بشرًا، لا يقلُّ بشرية عني، له نفس المشاعر، والفارق الوحيد بيني وبينه هو أنني أشعر بالبرد وأحتاج الملابس. كان يذهلني أن له عينين تشبهان عينيّ، ولسانًا بنفس لون لساني، وقدمين تنتهيان بالأصابع. كنتُ أحب مراقبة صدره وهو يرتفع ويهبط أثناء نومه. كنت أحب مشاهدته وهو يأكل الأشياء الميتة، ويطارد الطيور، ويتغوط في الغابة. بل إنني كنت أتغوط في الغابة أيضًا، لأن الأمر لم يبد غريبًا بالنسبة لي بعد مشاهدتي إياه. إنسان، حيوان، بدا لي أن الجميع سيان بالنسبة لي.

المقصد هو أنني لم أفكر أبدًا في جسدي في ذلك الوقت بوصفه شيئًا منفصلًا عن أجساد كلٍّ من الكلب أو الكوكابورا، أو السحلية، أو القطة الأم التي كانت في درج أختي المخصص للجوارب، والتي أنتجت في يومٍ ما وبطريقةٍ ما مزيدًا من الأجساد، التي هي نسخ مصغرة منها. وما هو مؤكد أيضًا أنني لم أكن أفكر بجسدي كشيء منفصل عن إدراكي الجديد، فقد كانا شيئًا واحدًا وكيَانًا واحدًا، حيث تمثل الإدراك بصورته الجسدية، تمامًا مثل البصر، أو اللمس، أو السمع. لذا فإن كنتُ أمتلكه، فلا بد أن كل

الأشياء الأخرى تمتلكه أيضًا. عرفتُ ذلك، ليس من خلال إعمال تفكيري، ولكن لأنه كان واضحًا. حين يحس الحلزون بلمستي، فإنه يتكـور. وحين يراني طائرٌ مـا أقترب منه، فإنـه يطير بعيدًا. وحين أقلب سلحفاة أختي على ظهرها، فإنها تعدل نفسها وتمضي زاحفة. كل ذلك كان هو الإدراك مجسدًا بالنسبة لي.

استمتعتُ بجسدي بالطريقة ذاتها التي تستمتع فيها الحيوانات بأجسادها. أحببتُ الاضطجاع في دفء الشمس كما يفعل الكلب. أحببتُ أن تنظـف أمي جلدي كما تنظف القطـة جلد صغارها. أحببتُ أن أطعم بالطريقة ذاتها التي كان حصان أختي يحب أن يُطعم بها. وبالنسـبة لـي، كان المطبخ هو مركـز البيت. الطعام الذي كانت تعـده أمي هناك كان أعظم متعة فـي حياتي، وعلى وجه الخصوص الكعك - طعـم الخليط على أصبعي، ورائحة الفرن حين يخـرج الكعك من الفـرن، والحـلاوة الحارة لأول قضمة. أو إن كنت مريضة ولا أستطيع تناول طعامي، ستحضر لي أمي بيضة مسلوقة مع قطع الخبز الرقيقة المحمصة وستأخذني الزبدة المالحة إلى قمة المتعة. كنت لا أزال شبه مقتنعة أن جسد أمي قد صُنع لهذا الغرض، لا لشيء آخر: أن تزودني بالقوت، وأن تجعلني أتألق بالصحة. وقـد كان ذلك. كنت أجري وأقفز

وأسبح عند الشاطئ. تعلمتُ ركوب الدراجة وكنتُ أقودها مسرعة على الممر بجوار المنزل. وكنتُ أنام عميقًا عميقًا كما ينام الأصحاء ولم تكن تؤرقني الهواجس أو الشكوك. كان من النعيم أن تكون على قيد الحياة.

وكما هي مرحلة الطفولة عادة، خلتْ طفولتي من المنغّصات على نحو لافت للنظر. لم يبد لي الأمر غريبًا لكوننا كنا كثيري التنقل. كان ذاك ما نفعله فحسب. كما أن ذلك لم يؤثر على شهيتي المفتوحة على المتعة أو على حالتي الصحية الجيدة، لذا فقد كنتُ محظوظة بهذه الطريقة، وسعيدة بأمٍّ لم تدع للشك مجالًا للتسلل في حبها لي. كان أبي هو من يستدعي القلق بشأنه، ولكنه كان بعيدًا في أغلب الأوقات. حتى حين يكون في البيت، كانت لامبالاته هي ما يتوجب عليّ التعامل معه، أكثر من أي شعور بالعداء الصريح. وأنا هنا أتحدث عن مرحلة سبقتْ مرحلة انصباب غضبه علي. حينئذ كان يصبُّ جام غضبه غالبًا على أختي، وبالطبع على أمي، التي كانت ترزح دائمًا تحت وطأة استيائه.

كلمة حالمة هي أفضل وصف لي إبّان طفولتي. يقيني المبكر بأنني جزء من مملكة الحيوان نتجتْ عنه حالة من التعلق التي

ظلتْ معي لسـنوات. لا ريب في أن ذلك كان في جزء منه آلية للدفاع عن النفس، طريقة لتحصين نفسي ضد طبيعة أبي المزعجة بشكل متزايد، غير أن له مزايا أخرى أيضًا. لقد كان ذلك يعني أنني ولفترة طويلة من الزمن كنتُ أتشـرب العالم كسلسـلة من الاكتشافات الرائعة، كما لو أن كل شـيء فيه قد وُجِدْ ليبث في نفسي البهجة. كنتُ في حالة انتشاء شعوري، وفي حالة حب مع وفرة غير قابلة للتفسـير وتنوع في الأشـياء. تخيلْ متعتي حينئذ حين وجدتُ نفسي فجأة وقد انتقلت إلى فيجي، وهو مكان ذو جمال غزير وغير مألوف لدرجة جعلتني أترنح.

بالنسبة لطفلة مرّتْ بالتحول العقلي الأبيقوري الذي مررتُ به، كانت فيجي أقرب للفردوس وأشبه ما تكون بها. دافئة وحسية ومليئة بالروائح والألوان والأحاسـيس ذات القوة الاسـتثنائية. كان الضياء هناك بالغ النقاء حد أنه كان يملأ كل شـيء بتوهج إضافي، بحيث لا تكون الوردة حمراء فحسب، ولا تكون ورقة العشب خضراء فحسب، يُنظر إليها ثم تُتجاهل. الأزهار، والعشب، وأوراق الشجر، والسماء، والرمل كانت تلفت نظري لها وتجعلني أحدّق فيها، إلى أن أمتلأ أنا أيضًا بالحمرة، والخضرة، والزرقة، ويصير جسـدي مفعمًا بالضياء. لبضعة أسـابيع عشتُ في هذه

الحالة من الإشراق المذهل، مولية قدرًا كبيرًا من الاهتمام بالضوء واللون بحيث صرت متواشـجة معهما كما كنـتُ مع الكائنات المتمثلة في الكلب والقطة وحلزون الحديقة.

خلال هذا الوقت كنا مستقرين في كوخ في حديقة فندق غراند باسـيفيك، الذي كان يقع بعيدًا عن واجهة الميناء. تلك كانت حديقتي الثانية، وهي مختلفة جدًا عن حديقتي الأولى. الأشجار هنا لا تشـبه في شـيء أشـجار الأكالبتوس الضخمة في حديقة الغابة. تلك كانت أشجار جوز هند نحيلة، وبعضها كان مستقيمًا، وبعضها الآخر كان يتمايل بصورة غير مستقرة مع نسيم المحيط، وسعفاتها تطقطق بشكل مستمر في الأعالي. أحيانًا كان العاملون في الفندق يهزونها لكي يصلوا إلى ثمار جوز الهند. اعتدتُ على سماع الثمار السمينة تهوي على الأرض مثل كرات طبية، وكنت أظل لمشاهدة الرجال وهم يشقّون الطبقة الخارجية ويكسرون القشرة. جلست على العشب معهم ومضغت الثمرة البيضاء التي أعطوني إياها. وحدّقتُ في أطرافهم المتقنة، وأسنانهم القوية، وشعرهم الملتمع، لأنني لم أرَ أجسادًا تشبه أجسادهم من قبل، حتىَ أنهم بدوا بلا عيوب. كنت مسحورة أيضًا بطريقة حركتهم التي اتسمتْ بالسـهولة والفتور، والنساء مثل الرجال في ذلك.

لم أرهم أبدًا فـي عجلة من أمرهم. وكنوع مـن إبداء الاحترام، أبطأتُ من حركتي، حد الكسل في واقع الأمر، ممضية أيامي في حالة شبه يقظة، ممارسة السباحة، أو التسـكع، أو التحديق في الماء حيث كان يرتطم بجدار البحر. كنت أراقب الأفاعي التي أخبرني الرجال بمـدى خطورتها، لـذا فقد كنـت منجذبة إليها كمصدر للذعر. وكانت رؤية واحدة منهـا في مياه الميناء كافية لجعل قلبي يكفّ عن النبض.

في مرحلةٍ ما برزتْ مسـألة الدراسـة. ولكن في فيجي حتى الدراسة بدت مصدرًا من مصادر البهجة. كنتُ محبطة من مدرستي الأولى، وهي مؤسسـة بلا جاذبية للرضع حتى الصف الثالث، مع فصول دراسية معرضة للهواء وملاعب مرصوفة بالأسفلت تصيب ركبتيـك بالكدمات حين تقع عليها. هنـاك كنت أرتدي سـترة رمادية خشـنة بدت دائمًا مبللة، ومعطفًا رماديًا فضفاضًا حين يكون الطقس باردًا. كنت أرى أن ذاك اللباس بمثابة الإساءة للجسد الذي يرتديه. ربما كان سـبب ذلك هو أنني ربطتُ بين الزي الرسـمي والإذلال الـذي تعرضتُ له حين كنـت أرتديه، مشاجرات سـاحة اللعب التي أدْمَتْ أنفي، وتنزيل مستواي من الصف الأول لأنني كنت ضعيفة في الحساب. الآخرون عانوا

أيضًا، وأحيانًا أكثر مما عانيتُ، مثل الصبي الذي يقطن في نفس شــارعنا حين تغوط في بنطاله في الطريق إلى البيت من موقف الحافلة، بمرأى من الجميع، ومشى إلى البيت والمادة المشينة تنزل على ساقيه.

مثل هذه الحوادث حصلتْ بشكل متكرر في تلك المدرسة؛ كان ذلك وقت قلق جسدي كبير. الذكرى الجميلة الوحيدة التي أحتفظ بها تخص معلمة تصب الماء البارد على معصمي تحت إحدى الحنفيات. لا بد أنني كنت في الخارج ألعب في الحر. أرتني أين تبدو الأوردة قريبة من جلدي.

قالت: «دمك يجري في كل أنحاء جسدك، لذا فإن خفضتِ درجة حرارة دمك، فإن ذلك سيسـاعد في خفض درجة حرارة جسدك كله». كان ذلك أهم درس علمتني إياه أي معلمة وقتها، وقد أحببتها بسبب ذلك. أصبحتُ واعية على الفور بالدم النابض في كل جزء من جسدي، وكان صحيحًا أن الماء البارد يسحب كل الحرارة منه.

لارتداء الملابس استعدادًا للذهاب إلى مدرستي في فيجي، كنتُ أحتاج أولًا للذهـاب إلى خياط. أخذتني أمي إلى وسـط

بلدة سوافا، وكان ذلك دائمًا متعة من المتع: المشاهد والروائح في الشوارع الضيقة كانت آسرة. السوق على وجه الخصوص يسحرك بما يعدك به من وفرة الأشياء. هنا كانت متاهة حلوة الرائحة من أكشاك الفواكه وبائعي السمك ومنصات المزارعين الذين يبيعون أشياء لم أكن أعرف أسماءها ولم يسبق لي تذوقها من قبل. أمي كانت تسجل الملاحظات للوقت الذي انتقلنا فيه إلى منزل يحتوي على مطبخ تعمل فيه فتاة تستطيع تعليمها ما تشتريه وكيف تطبخه.

«يا لها من متعة!» قالت، وهي تفرك يديها معًا. لم يسبق لي رؤيتها بهذا الحماس. ربما كان سبب ذلك أنها تعرّفتْ على صديق جديد ذاك الصباح في ردهة الفندق.

قالت لي: «لقد دعانا معًا للعشاء». كنا نحتسي الميلك شيك خلال استراحة من تسوقنا، وكان ذلك هدية منه.

كان أبي بعيدًا يعمل حينها في إحدى رحلاته الجوية، وهو ما كان يحسّن من الحالة المزاجية لأمي دائمًا. كانت تتألق حين يكون بعيدًا. وبدا أن بشرتها تشع نضارة وعيناها تلتمعان أكثر.

في محل الخياط أرتني كل الألوان التي يُسمح لي بارتدائها

في المدرسة. في أي يوم من الأيام كنتُ أستطيع الاختيار بين سترة زهرية اللون، أو خضراء بلون النعناع، أو فاتحة الزرقة، أو صفراء. الخياط كان هنديًا، ضئيل الجسد، ذا عينين سوداوين وأسنان مبقعة. أخذ قياساتي، ثم سحب لفة من القماش حتى أتحسس ثقلها ونسيجها. كنتُ متحمسة للمسألة برمتها، وفهمتُ أن هذه المدرسة الجديدة لا بد أن تكون مختلفة كليًا عن المدرسة التي تركتها ورائي. وكبداية كان الزي الرسمي الذي أرتديه مصنوعًا من هذا القطن الخفيف ذي النسيج المخرم برائحته السكرية الحلوة. وفي الوقت الذي كنتُ أتفحص فيه الأزرار والأحزمة والجوارب، التفتْ الخياط إلى أمي، محاولًا إقناعها بشراء بعض البلوزات والفساتين، متبادلًا معها المزاح والابتسامات كما لو أنهما كانا صديقين قديمين.

حين عدنا إلى الشارع، قالت: «يا له من بائع! لم أستطع أن أقول لا».

وقبل أن نغادر البلدة توقفنا عند محل قرطاسية لنشتري كتبي الدراسية الجديدة. كانت القرطاسية واحدة من اكتشافاتي العظيمة. لقد أَحببتها في وقت مبكر جدًا من حياتي. كنتُ أحب على نحو خاص أقلام التلوين في علبها أو حاوياتها المعدنية. كانت هناك

مجموعة من ٧٢ قلم تلوين مـن ماركة ديروينت تركت الدموع تجري من عينيّ، وعلى الأرجح أن ذلك حدث لأن أمي رفضت أن تشتريها لي. ولكن كل الأشـياء الأخرى كانت مغرية أيضًا، كل الأدوات التي تترك آثارًا على الورق: دفاتر تمرينات ملأى بصفحات مسطرة تنتظر أن تُملأ، كتب علم النبات بصفحة واحدة مسـطرة وأخرى فارغة، كتـب تخطيطات لا شـيء فيها سـوى الصفحات الفارغة، كراسات للرسم، مساطر، معجون، مقص، أقلام حبر، ريش للكتابة، حبر، أقلام رصاص، مساحات. كانت هذه الأشياء في أفضل حالاتها حين تكون جديدة، بالطبع، حين يكون كل شيء بانتظارها ليحدث، وقبل أن تظهر أخطائي ومواضع مسحي. وهذا كان سبب حبي لها، لأنها كانت وعدًا قد تجسد.

في يومي الأول في الفصل، خُصصتْ لي طاولة رائعة، مصنوعة من الخشب الصلد، وكان غطاؤها المزود بالمفاصل يفتح للأعلى ليكشـف عن فجـوة واسـعة، حيـث يمكـن ترتيـب كل أدواتي القرطاسية. كانت قطعة من الأثاث أكثر إتقانًا مما اعتدتُ عليه، وقد اقتضت ضمنًـا تعاملًا أكثر نظامًا مع العمل المدرسـي مما سـبق لي تجربته. وكما تبيّن لاحقًا، فقد كان النظام هو ما كنتُ بحاجة إليه طوال الوقت، نوع من التقدم الهادئ والراسخ خلال

الأشياء، وهو ما يؤسس للفهم ويبني الثقة. كان فصلنا الدراسي في الطابق الأول، وهو مكان جيد التهويـة، مليء بالضوء يطلُّ على أشـجار المانجو وملاعب الرياضة، وتعبر به نسائم البحر القادمة من المحيط. أتذكر جلوسـي هناك، وأنا أراقب معلمتنا وهي تشكّل حروف الأبجدية بالخط المتشابك لنقوم نحن بنسخها من السبورة، وكنت أحس بتحول في وعيي يكاد يماثل في قوته تفتح وعيي المبكر في الحديقة. كان عليّ التعاطي مع فعل الكتابة، الذي بدا فجأة مثل أكثر الأشـياء أهمية في العالم للتدرب عليه وإتقانـه، ليس بغرض معرفـة المعنى - فهذا سـيأتي في مرحلة لاحقة – بل من أجل سحرها.

في البدء كان حبي الشديد للخط مستمدًا من المتعة التي كنتُ أستشـعرها في تكوين الأشـكال على الصفحة، ولكن مع ذلك كان هناك شـيء آخر، حنين للقبض على الأشياء – الأصوات، الحديث، ما رأيته خارج النافذة، ما شعرتُ به حين تمطر، كيف تبدو القرى على امتداد مسار الحافلة إلى المدرسة – وأن أنقل كل ذلك إلى الآخريـن. كان لحروف الأبجدية هـذه القوة. إن تعلمتَ رسمها جيدًا ورتبتها بشكل صحيح، فسيكون بوسعك أن تخَبر أي شخص بما تحب، وأن ترسم لهم صورة بالكلمات، وأن تجعلهم يرون ما رأيته.

كان ذلك اكتشافًا مهمًا بالنسبة لي، إن بوسع يدي وعيني أن تنتجا علامات وإشارات لها سمات سحرية. كان ذلك يعني أن وعيي يستطيع التعبير عن نفسه لوعي الآخرين، وأنني، رغم عدم استيعابي لذلك بشكل كامل حينها، كنتُ أشعر به في غرفة الصف: بدء البحث، والتنقيب عن معجزة الفهم المتبادل التي سعيتُ لتحقيقها حتى هذا اليوم. لا زلتُ أكتب حتى لا أشعر أنني وحيدة في هذا العالم، ولكنني الآن أستخدم الكمبيوتر. الأمر الذي ضاع هو الجانب المرسوم باليد للكلمة المكتوبة - بعض السحر قد تضاءل، كما يحدث حتمًا مع كل متع الطفولة؛ فهي تبدأ وتنتهي.

الفندق أشبه بالنيرفانا بالنسبة لطفلة جائعة، أو هكذا بدا لي. هناك طعام في كل مكان، متوفر في كل ساعة من النهار والليل. كنت آكل كلما شعرتُ برغبتي في ذلك؛ كان كل ما عليّ فعله هو أن أزود الندلاء أو السقاة برقم كوخنا. وسرعان ما أصبحتُ في غير حاجة لفعل ذلك. بين الحين والآخر كان أبي يحاول كبح جماح نهمي للطعام، من خلال منعه تناول المشروبات الغازية والحلويات على وجبة العشاء، وكان يتوعدني بما لا يُحمد عقباه إن واصلتُ التردد على البار التابع للمسبح. ولكن

ما إن يرحل بعيـدًا وتؤول المسـؤولية إلى أمي حتـى أعود إلى عاداتي القديمة وألتهم الطعام كلما شـعرتُ بالجوع، دونما أي اعتبار للعواقب.

ربما يفسر ذلك سبب ألفتي السريعة مع صديق أمي الجديد.

«أطلبي أي شيء في قائمة الطعام»، قال لي، بصوته الرجولي الجميل.

أخبرتني أمي أنه يعمل في النفط. «من تكساس»، قالت، على الرغم من أن ذلك لم يعن لي شيئًا.

كل ما رأيته هو عينان خضراوان ضاحكتان وابتسامة عريضة وشعر كثيف بلون الرمل غزاه الشيب في الفودين.

«إنه بحّار»، قالت لي أمي.

«على سفينة؟»

«على يخت».

لثلاث ليالٍ تناولنا الطعام معه، ولثلاث ليالٍ قال الأشياء ذاتها.

«على حسابي. أي شيء في قائمة الطعام». قالها مازحًا حينها، فقائمة الطعام في فندق غراند باسيفيك كانت متواضعة.

ولكنها لم تكن مزحة بالنسبة لي. كنتُ مبتهجة، وكنت أطلب الكولا كل ليلة، وأنهي وجبتي بقمة البذخ، «بنانا سبليت» بصوص الشكولاته.

لاحظتُ أن أمي أحبتْ صديقها الجديد بقدر ما أحببته أنا، ولكن كانت تساورني شكوك بأن أسبابها تختلف عن أسبابي. كنتُ أنظر إليها وهي جالسة على الطاولة وألحظ تغيرًا ما يطرأ عليها، مثل تحول المد. كانت لا تزال متحمسة، وبشرتها لا تزال تلمع وعيناها تبرقان بصفاء، ولكن الآن هنالك شيء آخر لم أستطع أن أجد له اسمًا. بدا كما لو أنها تدندن. تساءلتُ إن كنتُ الوحيدة التي لاحظت ذلك، وبعد ذلك نظرتُ إلى القادم من تكساس ولاحظتُ أنه لا بد قد كان واعيًا بذلك أيضًا، لأن عينيه قد كفّتا عن الضحك وكان ينظر إلى أمي بطريقة جديدة.

لم يسبق لي أبدًا أن شاهدت الجنس. لا أعني الفعل الجنسي نفسه، بل أعني حضور الرغبة. فجأة بدت متمثلة أمامي، واضحة كوضوح النهار. كان الشيء ذاته الذي جعل الفتيات العاملات يتضاحكن حين وقفن أمام البار وهن يتحرشن بالسقاة. كان ذاك هو السبب الذي يدفع طالبات المرحلة الثانوية للصمت أمام الفتيان في الحافلة. كان ذاك هو سبب وقوع شقيقتي في المتاعب

في مدرستها الداخلية في سيدني لتجاذبها أطراف الحديث مع الفتيان في محطة القطار. اتصل بها أبـي وقرعها على الهاتف، قائلًا: «لماذا تصرين على أن تتصرفي مثل تورتة[1]؟».

حينها ظننـت أنه يحيـل إلى نوع مـن أنواع الكعـك. والآن، أتساءل إن كانت أمي تتصرف مثل تورتة أيضًا. لا أظن ذلك. كل ما كانت تفعلـه هو التمتع بوقتها. لم يسـتمر ذلـك طويلًا. كان مجرد غزل، فقد أبحـر صديقها مسـافرًا، وعاد أبي من سـفره، وكانت هذه هـي نهاية الأمر. ومـع ذلك فقد بـدأتُ بالفعل في مراقبتها هي وأبي بشكل أكثر دقة بعد ذلك. ما إن أصبحتُ واعية لوجود الرغبة، حتى بـدأتُ في ملاحظتها فـي كل مكان، حتى لدى والديّ، اللذين كانا أكثر هشاشة كلما دققتُ النظر إليهما، وكانا حساسين بطرق لم يخالجني الشك بوجودها من قبل، ولم يكونا متحكمين تمامًا بقدراتهما. حتى جسديهما كانا على أهبة الاستعداد ليخوناهما في أي لحظة.

حين عاد كلٌّ من شقيقتي وشقيقي لقضاء الإجازة، رأيتُ ذات

---

(١) كلمـة tart التـي تطلـق اسـمًا علـى أحد أنـواع الحلـوى، تسـتخدم أيضًا للإشـارة إلـى المرأة التـي تتعمد إظهار زينتها ومفاتنهـا لاجتذاب الرجال جنسيًا. [المترجم]

حالات الهشاشة والحساسية لديهما وأرجعتها للسبب نفسه. أصبح إليوت أطول قامة بمقدار قدم واحدة، وأصبح صوته أكثر خشونة، وكان يقفل باب الحمام حين يستحم. أما لدى أختي فكانت التغيرات أكثر وضوحًا، فقد كبر ثدياها، وأصبحت تضع كمًا أكبر من المكياج، وكانت تنانيرها قصيرة جدًا بحيث يمكنك أن ترى ملابسها الداخلية.

قال لها أبي: «لا تستطيعين الذهاب إلى العشاء وأنت بهذا الشكل».

«لم لا؟»

«لأن ذلك مثير للقرف».

الفتيان الذين كانوا يعملون في الفرقة الموسيقية التابعة للفندق لم يجدوا ذلك مقززًا، فقد كانوا يدعونها لمشاهدتهم وهم يتدربون، وبنهاية الأسبوع كان المغني الرئيس في الفرقة يمسك بيدها ويطلب منها أن تقابله بعد انتهاء العرض. تولينا شقيقي وأنا مهمة التجسس عليهما في الحديقة، حيث كنا نشاهدهما وهما يتبادلان القبل ويداعب كلٌّ منهما الآخر بين شجيرات الكركديه. لا أعرف ما كان يفكر فيه شقيقي، ولكنني كنتُ أصلي

دائمًا أن يتوقفا سريعًا ويفترقا، لأنني كنتُ أعرف أن أختي كانت تلعب لعبة خطرة.

ما كان خطيرًا ليس الرغبة بينها وبين المغني فحسب، بل هي حقيقة أن المغني كان أسود البشرة. وليس بوسعك أن تقيم في فندق مثل غراند باسيفيك دون أن تعرف شيئًا عن العِرق. كان ذاك هو المغزى الأساس للمكان. كان النزلاء في الفندق من البيض، في حين كان العاملون فيه من السود. واحدة من هاتين الجماعتين كانت هناك لخدمة الأخرى. ذاك هو الاتفاق الذي دخلنا فيه جميعنا. والآن ها هي ذي أختي تهزأ بالقواعد بأكثر الطرق فظاظة، متيحة للرغبة أن تتحدى النظام. كان شقيقي هو من خانها. عوقبت على جريمتها وأعيدت إلى المدرسة الداخلية تحت سيل هادر من التهديد والوعيد. تساءلتُ عما كان يدور في خلد بقية أعضاء الفرقة حول الأمر برمته؛ لا بد أنهم شاهدوا الطريقة التي كان المغني ينظر بها إلى شقيقتي، والطريقة التي كانت تنظر بها إليه. لقد رأيت ذلك أنا أيضًا. شعرتُ بالراحة حين عادت إلى المدرسة ولم يكن يتوجب عليّ أن أشعر بمزيد من الخوف عليها.

أما فيما يخصني، فعلى الرغم من أنني أصبحتُ واعية بحضور

الرغبة الجنسية لدى الآخرين، إلا أنني لم أتأثر بها شخصيًا. كنت شديدة الجهل بالجنس لدرجة أنني، حين أخذني عامل المطبخ إلى غرفة الطعام المهجورة بعد ظهر أحد الأيام، ظننته يمارس لعبة من الألعاب. اضطجعنا على سجادة تحت الطاولة وراح يحك جسده الصلب بجسدي عدة مرات لبضعة دقائق في حين كنت أنتظر أن تبدأ اللعبة. ثم انتهى الأمر وغادرنا. بل إننا توقفنا في المطبخ لندردش مع أحد الطهاة عما هو بصدد إعداده للعشاء. كان يقطع ثمار الأناناس حينها وأعطاني صحنًا مليئًا بالفاكهة التي تقطر لأحملها إلى الخارج. وفي حين عاد عامل المطبخ للعمل أخذت ثمرة الأناناس الخاصة بي وأكلتها على مقعد طويل قريبًا من حاجز الأمواج. وكما هي العادة كنتُ أبحث عن الثعابين السامة في الماء، منتظرة ظهور النور الخاطف المنبه باللونين الأسود والأبيض. وها هو ذا يلوح أمامي، فلا يمكن أن تخطئه العين، جسد نحيل، ورأس أشبه بالسهم، مصوبًا نحو المياه العميقة في البعيد.

ومع مرور الوقت، توضحت لي خبايا العِرق أكثر بطرق أخرى ذات ارتباط أضعف بالجنس وعلاقة أكبر بالسلطة. نجحتْ أمي في العثور على كوخ في حي يسكنه البيض خارج سوافا. الفيجيون

الوحيدون الذين يمكن رؤيتهم هناك هم البستانيون والخادمات اللاتي كن يأتين للعمل هناك. ولبضع ساعات كل يوم، كانت خادمتنا تنشغل بغسل ملابسنا في مرجل من النحاس في الفناء الخلفي، وبكنس الأرضيات، وترتيب فرشنا ودعك مكان الاستحمام. وكانت تطبخ أحيانًا، حيث كانت بارعة في طهي حساء السمك الذي يُحضّر مع حليب جوز الهند والكاسافا[١]. وكان الطعام يبقى على الفرن بانتظار عودة أمي من مدرسة الدير حيث وجدت لها وظيفة هناك. وكنت أرجع من المدرسة لتستقبلني رائحة الحساء الحلوة التي تملأ أركان البيت. أصبح ذلك جزءًا من حياتي تمامًا مثل المانجو الخضراء والعدس الحار في المخاريط الورقية الدهنية الذي كنا نشتريه من كشك هندي على جانب الطريق على مسافة قصيرة بالدراجة الهوائية من المنزل.

عن حياة الخادمة الأخرى، حياتها الحقيقية، كنتُ لا أعرف شيئًا، إلى أن طلبتْ مني في أحد الأيام أن أرافقها للقاء أسرتها.

---

(١) تزرع الكاسافا cassava على نطاق واسع كمحصول سنوي في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية. وهي مصدر رئيسي للكربوهيدرات ، وفي الحقيقة الكاسافا هو ثالث أكبر مصدر للكربوهيدرات للغذاء الإنساني في العالم، وأفريقيا أكبر مركز إنتاج لها. [المترجم]

كانت مسافة مشي طويلة في الحر، وحين وصلنا إلى هناك، شعرت بالندم لذهابي معها. لم يكن هناك ما يستحق الرؤية، فقط ثمة كوخ من الأسمنت ملطخ باللون الأحمر من الطين المحيط به، مع وجود فتحة في المقدمة ومجموعتين من الألواح الخشبية على هيئة نافذتين. كان محاطًا بأشجار الموز وصفوف الخضراوات المغروسة في التربة المتكتلة. كان ثمة امرأة أكبر سنًا تقف عند المدخل، ربما كانت أمها، ومجموعة من الأطفال، وجميعهم يبدو عليهم الخجل ويحول بينهم وبين الكلام. لم أعرف أسماءهم أو أعمارهم أو حتى إن كانوا يمتون جميعًا بصلة قرابة إلى الخادمة. ولم أكن أعرف كيف أتحدث معهم. ربما كنتُ مصابة بالصدمة من الطريقة البسيطة التي كانوا يعيشون بها. ربما أخرسني شعور انبعث للتو بالخجل. ما كان لي أن أعرف حينها الأمر الذي شعرتُ بالخجل منه على وجه التحديد، ولكنني كنتُ أعرف أنني أردتُ الابتعاد بأسرع ما يمكنني. ما كان عليّ سوى النظر إلى الخادمة، التي شعرتُ نحوها بشيء من الحب، لأكتشف أنني قد خيبت ظنها، وأن الزيارة برمتها كانت خطأ.

لم يكن اكتشافي لما أتمتع به من الامتياز أمرًا جليلًا، كما أنه لم يكن مصدرًا للشعور بالمتعة من أي نوع كان. ولكنه جعلني

أرى أشياء ربما ما كان لي أن أراها من قبل. جعلني ذلك أرى، على سبيل المثال، كيف أن بعض الفتيات كنّ ينظرن إلى امتيازهن بوصفه حقًا مكتسبًا بالولادة ولم يكنّ يشعرن بالخجل منه. قرر أبي أن يشتري لي مُهْرًا وسجلني في نادٍ محلي لركوب الخيل. لا أدري لماذا وافقتُ، حين لم أكن محبة لركوب الخيل. وأحسب أنني ما فعلتُ ذلك إلا إرضاء لوالدي، بما أن الخيول كانت ضمن اهتماماته ومصادر شغفه. بدا واضحًا من البداية أنني أقل مستوى من سواي. كنتُ أعرف بعض الفتيات من المدرسة، ممن كنّ يركبن الخيل منذ تمكنهنّ من المشي، في حفلات رياضية، يتنافسن لنيل الأوشحة، وكل ذلك مما كنتُ أجهله تمامًا. كنتُ في واقع الأمر لا أعرف حتى أبسط المبادئ، لذا كان عليّ أن أبدأ في فصل المبتدئات، متدربة على امتطاء الخيل والمشي، في حين كانت الفتيات الأخريات يأخذن خيولهن ليقفزن الحواجز في الحلبة الرئيسة. ربما أحس مهري بإذلالي وقرر أن يستغله، لأنني وبغض النظر عما كنتُ أبذله من جهد فشلتُ في جعله يطيع أوامري.

كان أبي ينصحني بقوله: «عليك أن تدعيه يعرف من بيده زمام الأمر».

وكنت أجيبه بقولي: «ولكن زمام الأمر ليس بيدي، وهذه هي المشكلة».

حاولتُ محاكاة صديقاتي، معتقدة أن بإمكاني خداع مهري باصطناع ثقة لم تكن لديّ، ولكنه استمر بسلوكه ذاته، وواصلتُ أنا وقوعي في الأخطاء.

لا أظن أن الفتيات الأخريات كنّ يتعمدن القسوة، ولكنهنّ بدأن في التعليق على نقص كفاءتي العامة كراكبة خيل. لقد حدث ذلك في الإسطبلات حين كنا نعد السرج، أو بعد انتهاء دروس اليوم. كنت أنظف ظهر المهر الخاص بي، أو أمشط عرفه، عندما يبدأن في إرشادي بالطريقة الصحيحة للتنظيف أو المشط، بالطريقة الصحيحة للمشي حول الحصان وأفضل طريقة للتعامل مع حوافر الحصان. كنت أشعر بالامتنان لهنّ، ولكنني كنتُ واعية أيضًا بالمتعة التي كانت هؤلاء الفتيات يشعرن بها لأنهنّ يتفوقن عليّ في كل ما له علاقة بالخيول. كانت طريقتهن في التعامل معي تشبه إلى حد بعيد طريقتهن في التعامل مع الهندي الذي كان يعتني بالإسطبلات. كنّ يتحدثن معه بنفس الطريقة نصف الودية، نصف الهزلية، على الرغم من أنه كان في عمر آبائهنّ. تساءلتُ لماذا لا يضربهنّ، ولكنه لم يستطع فعل ذلك

بكل تأكيد. كان ثمة سور طاقة غير مرئيّ يحميهن من التوبيخ. كان الجميع يشعر بذلك، حتى أنا. لذا فقد شكرتهن على نصائحهن وفعلت ما طُلب مني. وبعد ذلك بزمن ليس بالطويل قررتُ التوقف عن ركوب الخيل تمامًا، وقلتُ لأبي: «إنني لا أنتمي إلى هذا المكان».

وتلك كانت الحقيقة. نادي الخيول لم يكن عالمي، وقد تورطتُ بشيء لم أكن أفهمه، وحصاني قد استوعب ذلك قبل أن أستوعبه أنا.

إن رويتُ هذه التواريخ الصغيرة الآن، فلأنها تستحضر شعورًا ما بطبيعة ما كنته في ذلك الوقت، الشخص نفسه ولكن بشكل مختلف، لا يزال الجسد ينمو ويتمدد إلى داخل العالم بدلًا من الانكماش والتراجع عنه. غالبًا ما يُقال إن الحياة قصيرة. ولكن الحياة أيضًا متزامنة، فكل تجاربنا تحدث في الزمن والجسد معًا. إذ ما نكون، إن لم نكن جسدًا يأخذ عقلًا في نزهة، ليستكشف ما حوله؟ وفي نهاية المطاف، إلى أين نؤول، إن لم يكن إلى بداية لم نغادرها حقًا؟ *الزمان الحاضر والزمان الماضي/ حاضران كلاهما، ربما، في الزمان المقبل، والزمان المقبل يحتويه الزمان*

الماضي[1]. كل الأزمنة كما يخبرنا ت. س. إليوت هي زمن واحد. أنا فتاة صغيرة وأنا امرأة تُحتضر. جسدي هو رحلتي، السجل الأصدق لكل ما فعلته ورأيته، موضع كل أفراحي وانكساراتي، كل مفاهيمي الخاطئة وبصائري العمياء. إذا شعرتُ بالحاجة إلى استعادة الرحلة، فكل شيء هناك مكتوب بالأبجدية الرونية[2] على جسدي. حتى خلاياي تتذكرها، كل تلك الشمس المشرقة التي تحممتُ بها في طفولتي، الكثير منها كما تبين. *في بدايتي نهايتي*.

الأوقات التي تعني لي الشيء الكثير هي تلك التي أحسستُ فيها أنني مفعمة بالحياة. حتى حين كنتُ طفلة حالمة، كانت هناك أوقات تفتح وعيي فيها. الخوف سيفعل ذلك، وهذا هو سبب هوسي بثعابين الماء، والحب، الذي هو وفق تجربتي أقرب

---

(١) مطلع المقطع الأول، الذي يحمل عنوان «بيرنت نورتن»، في قصيدة ت. س. إليوت رباعيات أربع، بترجمة توفيق صايغ. [المترجم]

(٢) الحروف الهجائية الرونية *Runes* هي مجموعة من الحروف الأبجدية التي كانت تستخدم في كتابة مختلف اللغات الجرمانية قبل اعتماد الأبجدية اللاتينية، ثم بعد ذلك استخدمت لأغراض متخصصة. [المترجم]

ما يكون إلى الخوف لدرجة يكاد ينعدم فيها الفارق بينهما. يقول جوليان بارنز في *مستويات للحياة Levels of Life*: «ثمة قصة حزن كامنة في كل قصة حب»، وهو أمر كنتُ على دراية به منذ سن مبكرة جدًا.

أعتقد أن ذلك ينطبق على معظم الأطفال. وهو أمر يحدث في يقظة الوعي. كل شيء يعيش حتى يموت، بما في ذلك من نكنُّ لهم القدر الأكبر من الحب، وهي في أيام طفولتي الحالمة كانت أمي. ذهبتُ في رحلة معها في أرجاء الجزيرة الرئيسة في فيجي. سافرنا مع فتاة عرفتها من المدرسة وأمها، التي كانت صديقة أمي المقربة هناك. أقمنا في النزل القريبة من الشاطئ على امتداد الطريق، متنقلين بالسيارة من قرية إلى قرية، ومن بلدة إلى بلدة، دون أي وجهة محددة. وفي نهاية كل يوم كان هناك دائمًا شاطئ وسباحة وسرير بملاءات نظيفة، دون وجود أدنى إشارة لوجود ما يعكر صفونا.

باستثناء ليلة واحد أخذتني فيها أمي للمشي بين الشعاب المرجانية، إلى الحافة ذاتها، حيث تنخفض الشعاب المرجانية بعيدًا وَيتغير لون المياه من الأخضر الفيروزي إلى الأزرق الداكن. كانت الأمواج تضطرم، والرياح شديدة، وأردتُ أن نستدير ونعود

إلى المنزل. لكن أمي وقفت بثبات، بابتسامة جامحة تعلو وجهها، وشعرها يتماوج حول رأسها وذراعاها ممدودتان.

«انظري أين نحن الآن!»، قالت بصوت مرتفع، وهي تلتفتُ لتستوعب امتداد الشاطئ خلفنا. أدركتُ حينها مدى طول المسافة التي قطعناها مشيًا، وكم أننا حتمًا بدونا في غاية الصغر من البر، كنقطتين تلوحان قبالة الأفق. وشعرتُ بدفقة من الحب لأمي، كما لو كنتُ في أي لحظة قد أفقدها بسبب موجة شريرة أو سمكة قرش تسبح في المياه الضحلة، لأنني كنتُ أعلم أنها كانت هناك في المياه المعتمة، على بعد أمتار فقط.

قلتُ: «الشمس تغرب»، فقالت أمي: «حان وقت الذهاب».

وهكذا شققنا طريقنا عائدتين، مع ارتفاع المد حول أقدامنا ولون السماء يتحول إلى البنفسجي ثم البرتقالي ثم الأصفر المنصهر.

في تلك الليلة استعدتُ المشهد في رأسي مرات كثيرة قبل أن أنام، محاولة تهدئة قلبي، لكن في كل مرة كنت أتخيل فيها جسد أمي الصغير محاطًا من كل تلك المياه كان الذعر يدبُّ في قلبي مرة أخرى ودمي ينفجر.

حتى نومي كان مليئًا بأحلام قلقة، حيث كنتُ أنا وأمي نهوي من حافة الشعاب المرجانية في أعماق المياه المتماوجة، وحيث كان عليّ أن أنقذها. ثم أستيقظ وأسمع صوت الأمواج من بعيد وأدرك، مع شعور غامر بالراحة، أنها كانت معي هنا، في نفس الغرفة، تتنفس بهدوء في سريرها.

لا عجب أن أمي وأنا بقينا قريبتين من بعضنا بعضًا معظم فترات حياتي. لقد مررنا بالكثير سويًا، حين كنا وحدنا معًا. حتى أننا نجونا من إعصار فيجي، إذ بادرنا في عجل معًا بملابس السباحة لتجهيز المنزل للعاصفة، في حين كان المطر يهطل في جدران صلبة من الماء. أما أبي فكان عالقًا في جزيرة أخرى، لذا فلم يكن هناك من أحد يساعدنا. لكن أمي كانت رابطة الجأش؛ فقد عثرت على المكان الذي تُخزن فيه مصاريع الإعصار تحت المنزل، وجلبت سلمًا. كانت مهمتي تتمثل في مناولتها المصاريع واحدًا تلو الآخر، وهو لم يكن بالأمر السهل كما يبدو. كانت المصاريع ثقيلة وكانت الرياح العاصفة تتنقل حول الحديقة في كل الاتجاهات في وقت واحد. لم يسبق لي أبدًا أن شاهدت مثل هَذا العرض للجبروت. كانت أشبه ما تكون بالحيوان في ضراوتها، وكأنها قطيع من الوحوش الغاضبة التي أطلقت علينا.

استمر العويل والضجيج طوال النهار وطوال الليل. وكنا ملتفتين معًا في السرير بانتظار أن تتوقف العاصفة. لم يكن ثمة شيء آخر نفعله سوى التشبث ببعضنا بعضًا استمدادًا للشجاعة والدفء. كان أسوأ شيء هو الضجيج، القرع المزعج على سقف الصفيح حيث تهدد الرياح بتمزيقه، الجلبة التي أحدثها المطر، صدع وقعقعة الأشجار خارج النافذة. لم يكن هناك مجال للنوم، فكنا نستلقي مستيقظتين وخائفتين. كل ما كنتُ أستطيع فعله هو ألا أبكي بصوت مرتفع من الشعور بالشفقة من عجزنا وقلة حيلتنا. لكنني تمثّلتُ شجاعة أمي ورفضتُ الاستسلام للخوف. وبحلول الصباح، كانت الرياح والأمطار قد بدأت في التراجع. لا بد أن ذلك حدث بعد يومين أو ثلاثة حين توجهنا بالسيارة إلى المدينة. لقد كان مشهدًا مروعًا. كان هناك حطام متناثر في كل مكان، وكان الطريق مليئًا بالحفر حيث جُرف الأسفلت، وانقصفتْ الأشجار إلى نصفين. توقفنا بجوار واجهة المرفأ، بالقرب من حديقة، حيث انقلبت شجرتا ظل ضخمتان رأسًا على عقب. كانت جذورها معلقة في الهواء، وقد تكتل فيها الوحل، وتجمع الناس حولهما للتحديق كما لو كان ذلك مسرح جريمة. أعتقد أن الحزن كان الدافع الرئيس لهم، وقد شعرتُ

بذلك بنفسي عندما جئتُ لأرى. تشبثتُ بيد أمي وحاولتُ إيصال حبي لها بهذه الطريقة، لأن الكلمات بدت غير كافية.

قالت: «فلنذهب ونـرى ما يمكننـا العثور عليه مـن الطعام. سنشعر بتحسن بمجرد أن نأكل».

***

ما زلتُ أفتقد أمي، حتـى الآن. عندما قيل لي أن لدي ورمًا في دماغي، خُيرت بين إجراء الجراحة على الفور لإزالته، أو الخضوع لبعض جرعات من الإشعاع للقضاء عليه. كلتا الطريقتين كانت فاعلة لكن كلًا منها ينطوي على مخاطر مصاحبة. لم أقرر على الفور، وأمضيتُ عطلة نهاية الأسبوع وأنا أفكر في الأمر. كنت منتشية من المنشطات في ذلك الوقت، وأذكر أنني كنتُ مستلقية على سـريري، غير قادرة على النوم، وأناقش خياراتي بصمت مع أمي كما لو كانت تسمع ما كنت أفكر فيه. حتى أنني سـألتها الصلاة من أجلـي، لأنني لـم أكن أعرف كيـف أصلي لنفسي. فكرتُ مرة أخرى في كيفية نجاحها في بعض الأوقات العصيبة فـي حياتها، وتذكـرتُ قراءتها لنسـختها القديمة ذات الغـلاف الجلدي مـن *سفر المزامير*، وهو أثـر قديم مـن بقايا طفولتها الأنجليكانية. لم أسـتطع حتى تذكر «الصلاة الربانية»

من أيامي في مدرسة الأحد، رغم أنني حاولت. *الرب هو الراعي* قلتُ لنفسـي، ثم تعثّرتُ، مخاطبة نفسـي بقولي لـو كانت أمي معي، لعرفتْ ماذا تفعل، تمامًا كما عرفتْ ما يجب أن تفعله في الإعصار.

في نهاية المطاف، اخترتُ الجراحة، نصف آملة بألا أستيقظ في نهايتها. سـتعرفين ماذا يعني هذا الشـعور يا أمـي، قلتُ في نفسي، بالنظر إلى الطريقة التي متِّ بها. لا بد أنك أمضيتِ ليالي كثيرة وأنتِ متيقظة، مصلية أن يسترد الرب أمانته في الليل. إن قدر لـي الموت قبـل أن أسـتيقظ/ فالربَّ أسـألُ أن يأخـذ إليه روحي[1]. لكنه لم يظهر لك رحمة، ومن غير المرجح أن يُظهر لي أيَّ شيءٍ منها. كان هذا فحوى هذيان الليل الصامت. عدتُ طفلة مرة أخرى، محمومة قليلًا ومشوشة، غير قادرة على معرفة الفرق بين الواقع والوهم، والحقيقة والخيال، وأردتُ يدًا باردة على جبيني، بيضة مسـلوقة وقطع خبز رقيقـة محمصة مدهونة بالزبدة، أيما علامة تدل على أن ثمة من يعتني بي.

---

(١) صـلاة دينيـة قديمـة مـن القـرن الثامـن عشـر يتلوها الأطفـال قبـل النوم. [المترجم]

ربما كانت أسوأ مرحلة في حياة أمي هي العام الذي قضيناه في أفريقيا. حصل والدي على وظيفة طيران في «إيست أفريكان أيرويز»، وتبعناه أمي وأنا. تركنا سارة في كلية المعلمين وإليوت في أولى سنواته التدريبية في هيئة البث الأسترالية ABC. ستكون مغامرة أخرى، أخبرنا أبي، ولا بد أن أمي صدقته. إما إن يكون ذلك ما حدث، أو أنها لم تكن قادرة على حرمانه من هذه الرمية الأخيرة للنـرد. كان أبي يحرز تقدمًا بحلـول ذلك الوقت. كان الطيارون الأصغر سنًا يرتقون في السلم الوظيفي وكان الحصول على عمل يزداد صعوبة، خاصة أسـلوب المدرسة القديمة في الطيران الذي كان مفضلًا لدى أبي.

لم يكن لديّ مانـع، فقد كنت في المدرسـة الثانويـة حينها، وكنتُ أشعر بملل قاتل. بدت كانبيرا وكأنها صحراء، خاوية من الحياة، حتى إنك لتتسـاءل في بعض الأيام عمـا إذا كان نصف السـكان قد ماتوا فيها خلال الليل. اعتقـدتُ أن أي مكان آخر سيكون حتمًا أفضل. و«نيروبيكانت» أفضل من نواح كثيرة، على الأقل بالنسبة لي. ذهبت إلى مدرسة أفضل، وكوّنتُ صداقات أكثر إشـراقًا، وتوقفتُ عن إخفـاء حبي للتعلـم. لكـن من نواحٍ أخرى كانت خطـوة إلى الوراء. كان أبي غير سـعيد منذ البداية

تقريبًا. وفيما كان الآن سيناريوهًا مألوفًأ، فقد بدأ بآمال كبيرة.

قال وهو ينفث دخان سيجار احتفاء بالمناسبة: «هذه هي وظيفة الأحلام؛ فالطائرات هي الطائرات التي أحب أن أحلق بها، والمسارات تمثل تحديًا، وأنا أتقاضى أجرًا للسفر. ما الذي يمكن ألا يعجبني؟».

ثم أخذ كل شيء في الانهيار. لم أكن أعرف لماذا على وجه التحديد، على الرغم من أن الإدارة غير الكفؤة كثيرًا ما ذُكرتْ باعتبارها السبب الرئيس. بدا الأمر وكأن سياسات العِرق قد فاقمت من كل شيء: هل سيقدم الطيارون البيض على تدريب الأفارقة السود على قيادة الطائرات، إن كان ذلك يعني التهديد بفقدان وظائفهم؟

قال أبي: «إنها فوضى عارمة حدَّ اندلاع معارك بالأيدي في قمرة القيادة».

تدهورت حالته المزاجية بسرعة، واحتدم غضبه. أصبح المنزل ساحة معركة، ولعل في القول إنه منزل شيء من المبالغة، فهو مجرد كومة من الحجارة الرمادية الصغيرة التي بُنيت لتشبه مدخل قلعة من القلاع. لقد ساعدت أمي في حبسنا هناك كل ليلة، مع

أثاثنا المستأجر وحفنة من الأطباق والقدور، آملين أن يدعنا اللصوص وشأننا، لأنهم حسب الجيران في كل مكان.

بصراحة، لقد خفتُ من أبي أكثر مما كنت أخشى اللصوص. بدا وكأنه فقد التحكم بزمام الأمور. كان يختفي لبضعة أيام ويعود منهكًا، سريع الغضب، وعلى أهبة الاستعداد لينفجر عند أدنى استفزاز. في بعض الأحيان كان يدخل في نوبة من الكآبة في المنزل لمدة أسبوع في كل مرة من المرات، الأمر الذي بدا غريبًا بالنسبة لأمي، فسألته: «هل أنت واقع في مشكلة؟»

«لا شيء مما لا أستطيع التعامل معه، شكرًا جزيلًا لك».

اقترحتْ عليه أمي أن يتخلص من وظيفته ويعيدنا إلى الوطن، فقال: «هذه هي عادتك دائمًا. التملص والفرار».

«ولكنك تعيس جدًا».

«ما تعنين قوله هو أنك تعيسة». جعل ذلك يبدو وكأنه اتهام بارتكاب جريمة.

في الليل كنت أسمعه يصرخ في وجهها، مستحضرًا كل الاتهامات القديمة. كان لديه قائمة من المظالم ضدها تعود إلى يوم زواجهما، أو هكذا بدا لي.

قال لها: «أنا آسف لأنني قابلتك. لقد كانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ منذ ذلك الحين».

«ربما يتوجب علينا أن نضع حدًا لها إذن».

«ماذا تقصدين، نضع حدًا لها؟»

قالت أمي: «الطلاق. إذا كان هذا ما تريده».

أدركتُ حينها أن الأمور وصلت إلى الحضيض. لم يسبق لأمي أن تحدثت عن الطلاق من قبل. هذا كان قبل أن ينتشر، عندما لا تزال المرأة المطلقة تبدو بذيئة وسيئة السمعة. وأمي لم تقرأ بعد ذاك النداء المتوقد للتمترس بالسلاح، *الأنثى المخصية* *The Female Eunuch*[1].

قال أبي: «لا تكوني سخيفة».

في النهاية لم تستطع أمي تحمل المزيد. قالت لوالدي: «نحن ذاهبتان. بوسعك المجيء لاحقًا حين تنتهي من ترتيب الأمور هنا».

---

(١) كتاب لجيرمين جرير نشر عام ١٩٧٠ وأصبح من أكثر الكتب مبيعًا عالميًا ونصًا مهمًا في الحركة النسوية. أطروحة جرير هي أن الأسرة النووية «التقليدية» تقمع النساء جنسيًا، وأن هذا ينزع عنهن خصوبتهن، ويجعلهن مخصيات. [المترجم]

اصطحبنا في رحلة وداع إلى حديقة السفاري خارج نيروبي. جلنا فيها بالسيارة لبضع ساعات متأملين في الزرافات والحمر الوحشـية. قامت مجموعة من قـرود البابون بإيقافنـا، مطالبين بالطعام، وهم يتسـلقون غطاء المحرك ويحدقون بنا من خلال الزجاج الأمامي، حتى شـعروا بالملل وابتعـدوا، وهم يتلفتون نحونا بازدراء. وحين عدنا إلى مدخل الحديقة توقفنا للسير حول الحظائر المسيجة حيث كانوا يحتفظون بالحيوانات المصابة أو المريضة. لم يسـبق لي أن رأيت وحيد القرن من هذه المسـافة القريبة من قبل. وقفتُ محدقة في بنية جسده الهائلة، متعجبة من مدى مسالمته، وهو المخلوق المدرع بشكل كبير.

قال والدي: «لا تنخدعي به، فأنـت ترينه وهو بحالة مزاجية جيدة».

لربما كان أبي يتحدث عن نفسه.

كان في أفضل حالاته بعد ذلك، مساعدًا أمي على حزم الأمتعة واتخاذ الترتيبات، ومتحققًا من أن جميع رحلاتنا مؤكدة. وفي المطار انتابته موجة عاطفية.

«لن نكون الفرسـان الثلاثة بعد الآن»، قال، وهو يعانق أمي أولًا ثم أنا. «الكل للواحد والواحد للكل».

قالت أمي: «ليس عليك البقاء».

فقال: «كنتُ أفكر في احتمال الذهاب إلى إنجلترا بعد أن أنتهي هنا، لأرى إن كان بإمكاني العثور على شيء هناك».

«حسنًا، أنت تعرف دائمًا أين تجدني».

قبّلته، جافة العينين، على خده والتقطتْ حقائبها متأهبة للذهاب.

قلت: «سأكتب إليك»، وشعرتُ بالأسى له فجأة، فهو قد جرّ الكثير من المتاعب على نفسه لسنين عديدة. بدا مكسورًا ومنحنيًا ومرهقًا. عيناه كانتا تفيضان بالدموع.

«كلي أمل أن تفعلي ذلك».

كانت رحلة طويلة إلى الوطن. المحطة الأولى كانت كراتشي، حيث انتظرنا هناك طويلًا، وبانكوك كانت المحطة الثانية، حيث وصلنا في حالة مزرية جدًا، لنكتشف أن رحلة الربط على خطوط كانتاس Qantas إلى سيدني لم يتم حجزها ولم نكن في الرحلة. لم أرَ أمي أبدًا في مثل هذه الحالة من الغضب. طلبتْ التحدث إلى المسؤول في كانتاس. وعندما وصل، والابتسامة العريضة

ترتسم على وجهه، بدأت في سرد تاريخ كانتاس، وكيف كان والدها من المستثمرين المؤسسين، وكيف كان عمها فرانك أول وكيل حجز للشركة في «لونغريتش Longreach».

قالت: «تحرَّ عنه. فرانك كوري. إنه دلال ومحرر *لونغريتش ليدر Longreach Leader*».

استمع موظف كانتاس باهتمام مصطنع، ثم أخذ تذكرتينا وجوازَيْ سفرنا وانطلق بعيدًا ليرى ما بوسعه فعله.

«إنني أتوسل إليك»، قالت أمي موجهة نداءها صوبه غير آبهة بمن يسمع. «لدينا تذاكر، حبًا في المسيح. لقد دفعنا الآلاف للحصول عليها».

قلتُ لها: «أنت تصرخين».

«لا يهم. لا بد من العودة إلى الوطن».

كانت محقة. كان علينا العودة إلى الوطن، وعدم وصولنا إلى الوطن كان أمرًا لا يمكن تصوره.

بعدِ مرور ساعة، ظهر المشرف وأعطانا إشارة تحقق المراد. هوت أمي عند قدميه.

«أنت منقذي،" قالت، وهي تضحك وتبكي في الوقت نفسه.

على متن الطائرة، تعافتْ بما يكفي لتعترض مضيفًا وتطلب الشـمبانيا، فقال لها برنة صوته الأسترالية: «سـنقدم مشروبات مجانية بعد الإقلاع مباشرة».

حدّقتْ أمي فـي وجهه الصبياني الأشـبه بقناع مـن البرونز، وقالت: «هلا قلتَ ذلك مرة أخرى".

استجاب لطلبها، وشكرته، والتفتتْ صوبي وابتسمتْ وقالت: «لقد نجحنا».

***

تغيرتْ أمي بعد ذلك. ثمة عقدة ما حُلّتْ. لن يكون هناك مزيد من عمليات الاقتلاع، ولا مزيد من الإقلاع المفاجئ. لقد وصلت إلى نهاية الخط، وكل ما تريده الآن هو أن تستقر. عدّتْ نفسها محظوظة لأنه لا يزال لديها وظيفة التدريس ومنزلها. هي أيضًا تقدم بها السن، وبدأت في رؤية خياراتها تتقلص، وتسلل إليها الندم على مقدار ما أهدرته من الجهود لإرضاء والدي لسنوات عديدة.

لقد عاد إلى المنـزل، بالطبع، وكانت تعلم أنه سيفعل ذلك -عاطلًا عن العمل، غاضبًا، منهكًا- مضيفًا أفريقيا بوصفها مغامرة كبرى أخرى تبوء بالفشل. انتقل إلى الغرفة الخلفية، أصغر غرفة في المنزل، الغرفة التي كنا نسميها غرفة الضيوف، بينما بقيت والدتي في غرفة النوم الرئيسة حيث كانت تنام في سرير مزدوج وحدها. لم يدر في خلدي أبدًا، حين تبدت لي الرغبة للمرة الأولى في فيجي، كيف يمكن أن تتحول بسهولة إلى نقيضها، وهو ما كان في حالة والديّ نوعًا من الازدراء الذي بالكاد يمكن احتواؤه. كنتُ أتخيل الرغبة شيئًا غير قابل للإخماد، لكنني الآن أدركتُ أنها تبدأ وتنتهي تمامًا مثل أي شيء آخر.

كانت غرفة أبي مقبرة للرغبة. اعتدتُ الدخول هناك لتوصيل الغسيل المطوي وتنظيف الأرضية. أظن أنني توليتُ هذه المهام لأكفي أمي عناء القيام بها. لم أعتقد أنها كانت تود رؤية السرير غير المرتب، وخزانة الكتب المغبرة، وفرشاة الشعر، والمشط، وقلامة الأظافر، وشفرة الحلاقة، والقمصان، وربطات العنق وهي بائسة في خزانة الملابس. بالنسبة لي كانت رؤية متعلقات أبي الشحيحة مثيرة للحزن بما يكفي، لكنها بالنسبة لها لربما كانت قريبة من كونها لا تُحتمل.

قالت لوالدي: «لا يمكن لهذا أن يستمر".

كانا يتجادلان مرة أخرى، حول الأشياء المعتادة، وبعد ذلك امتنع أبي عن الحديث إلى أمي لعدة أيام، باستثناء طلب مزيد من الصلصة للنقانق، أو مزيد من الحليب لقهوته.

قلتُ له: «اخدم نفسَك بنفسك»، وقد سئمتُ من طباعه، لذا فقد امتنع عن الحديث معي أيضًا.

وحين قرر المواجهة، قال لها: «ماذا تقترحين؟»

فقالت أمي: «الانفصال. لقد تحدثتُ إلى محام وقد كنت في البنك. يمكنني اقتراض ما يكفي لشراء حصتك».

لم يكن هذا شيئًا جديدًا بالنسبة لي. لقد أخبرتني أمي بالفعل عن خططها. لكن ما كان لأبي أن يكون مصدومًا أكثر لو أنها أشهرتْ مسدسًا في وجهه وهددتْ بقتله.

«أنا لا أصدقك».

ذهبتْ إلى المكتب وأحضرتْ الأوراق. ارتجفت يداها وهي تضعها أمامه بعنف، وقالت: «خذ وقتك».

مر عامان آخران قبل أن يوقع، وكان قد أمضى بعض ذلك

الوقت في إندونيسيا ناقلًا سجناء سياسيين من جاوة إلى جزيرة/ سجن تسمى بياك. لكنه في الغالب أنفقه متسكعًا في المنزل، مغرقًا أكثر فأكثر في حالة من اليأس، مستشعرًا الغضب أكثر فأكثر لأن رجلًا بمثل مواهبه وقدراته يمكن أن تسوء به الحال إلى تلك الدرجة. وماذا أيضًا، لم تكن له يد فيما حدث. تآمر عليه القدر والظروف، في تحالف مع زوجته، التي كان ينبغي أن تكون مخلصة له، ولكنها بدلاً من ذلك اتخذتْ من تدميره مهمة لها في الحياة.

قالت له: «هذا هراء».

«بإمكانك قول هذا».

غادر في أحد أيام الشتاء، آخذًا معه بضعة حقائب فقط، وقال إنه سيعود لأخذ البقية بمجرد أن يستقر.

سألته أمي: «أين ستقيم؟»

«ما الذي يهمك في الأمر؟»

كان متوجهًا إلى سيدني، حيث ادّعى أن لديه بعض الأصدقاء القدامى.

قالت أمي: «سنحتفظ بأشيائك في المرآب».

«هذا تفضل كبير منك».

ثم انطلق بالسيارة بعيدًا في الشارع وقد أضاء الأنوار الخاصة للضباب.

قالت أمي: «يا إلهي، ماذا فعلتُ». كانت تلك جملة تقريرية وليس سؤالًا. كان ذلك يعني أنها عبرتْ للتو خطًا لا رجعة إلى ما ورائه إلى الأبد.

* * *

حب والدتي الأول كان محاميًا قُتل في الحرب. كان في رحلة استطلاعية فوق أحد الشـواطئ في مكان ما فوق جزر سليمان عندما اصطدمت الطائرة بشجرة وتحطمتْ في كرة من اللهب. وبمحض الصدفة كان شقيقها بيتر على متن سفينة ليست بعيدة عن الشاطئ ورأى كل شـيء، لكنه لم يخبر أمي بذلك إلا بعد ذلك بسنوات. الحقيقة هي أن والدَيْ أمي كانا مرتاحين لمقتل عشيق أمي، لأنه كان من ميلبورن ولأنه كان نصف-صيني وبالتالي فهو بغيض لناحيتين.

كبرتُ وأنا مسكونة بهذه القصة. لربما انتهت بشكل مختلف

جدًا. لربما عاد المحامي من الحرب وتزوج أمي. ولربما رزقا بأطفال لم يكونوا أختي وأخي وأنا، بل أناسًا مختلفين تمامًا. وفي هذه الحالة ما كان لنا، أختي وأخي وأنا، أن نوجد على الإطلاق، وفي أي مكان. كنا سنبقى رهن العدم. وحدها الصدفة من تدخلت وتسببت في وجودنا، نحن البدلاء، نحن المحظوظون.

مصادفة الولادة تشبه هذا الأمر. وكذلك كل شيء يحدث بعد ذلك، أو هكذا يبدو لي. كم من المرات كنتُ معرضة فيها للموت قبل الآن، وبكم من الطرق المختلفة. ومع ذلك فقد أوشكتُ على الموت مرة واحدة فقط: سيارة سيدان مسرعة تجاوزت إشارة حمراء واصطدمتْ بثلاث سيارات أخرى، ومزقت الإطار الخلفي لسيارتي بعد جزء من الثانية من خروجي من سيارتي المتوقفة. وصف أحد المارة المشهد لي لاحقًا، بقوله: «كنتِ على بعد مليمتر واحد من فقدان ساقيك».

لم أر شيئًا، فقط استدرتُ عندما توقفت سيارة السيدان تمامًا وخرج منها سائقها المراهق دون أن يصاب بأذى، وهو يقول مرتجفًا ومعتذرًا: «لقد تعطلت مكابحي، ولم أستطع التوقف».

تساءلت مرات عديدة عما كان يمكن أن يحدث لو أنني فقدت

ساقيّ، أو حتى ساقي اليمنى، حيث ظهر ورم الميلانوما الأول بعد عامين أو ثلاثة أعوام. لـو أنني كنتُ أبطـأ بثانية واحدة في الابتعاد عن السـيارة، لربما مـا كنت أحتضر الآن. سـأكون بلا ساقين بالطبع، لكن بصحة جيدة. من هذه التفرعات المصيرية في الطريق تتشـكل حياتنا. كلنا على بعد مليمتر واحد فقط من الموت، طوال الوقت، لو قدر لنا أن نعرف فحسب. الهاجاكوري[١] هو بيان سـاموراي مكتوب عام ١٧١٦ كُتب لتذكير قرائه بهذه الحقيقـة التي لا جـدال فيها. يقـول مؤلف الكتاب تسـونيتومو ياماموتو: «إنه لمن الحماقـة أن تبدد حياة بأكملهـا في الصراع والقلق والقيام بأشياء لا تريد القيام بها؛ فما هذه الحياة إلا مثل الحلم، جِدُّ قصيرة وعابرة». وهـي نصيحة صالحة حتى لزماننا هذا.

وبالطبع أتساءل لماذا لم أكن أكثر يقظة حول فحص بشرتي، لأنني لو فعلتُ ذلك، لتمكنتُ من التنبه إلـى بواكير الميلانوما

---

(١) هـو كتـاب ألفـه اليابانـي ياماموتـو تسـونيتومو (١٦٥٩-١٧١٩)، أحـد محاربـي السـاموراي، راويًـا فيه كل ما تعلمـه لتابع له يدعى تسـوراموتو تاشـيرو. والهاجاكوري تعني باليابانية: المحتجب وراء وريقات الشـجر. [المترجم]

قبل أن تسوء الأمور، ولوفرتُ على نفسي الكثير من الأسى. عندما شُخصتْ حالتي أول مرة، كنت غاضبة من نفسي لكوني كنت على درجة كبيرة من الكسل والغباء بحيث لم آبه لأي شيء فيما عدا الفحص السريع بين الحين والآخر. ولكن بعد ذلك قررتُ أن هذا النوع من التفكير كان مضيعة لوقتي، لأننا نشرع في الموت لحظة مولدنا. أدرك ذلك الآن، ليس بالطريقة التي عرفتها طفلة عندما رأيت السقنقور يختفي أسفل مريء الكوكابورا، بل بطريقة شخص يُحتضر. لقد تحولت المعرفة من ذلك الهاجس الذي يضيء لأول وهلة ثم سرعان ما يُنسى إلى واقع معيش لا يمكن إنكاره.

أتخيل أنني قد أشعر، حين تدنو منيتي، بما شعرتْ به أمي عندما انتهت علاقتها بأبي إلى الأبد. يا إلهي، ما الذي فعلته. لقد تجاوزت خط اللاعودة. ما بدأ جيدًا، وبدا مليئًا بالوعود، قد انتهى به المطاف إلى هذا، صفر كبير. لكن هذا يفترض أنني سأكون بكامل وعيي حتى النهاية وقادرة على إدارة هذه الأفكار في رأسي. وإذا ما تحريتُ أن أكون واقعية، فإن هذا ليس السيناريو الأكثر احتمالًا. بقدر ما أستطيع القول، إما أن أستسلم لبعض العدوى الانتهازية، التي رفضتُ تناول المضادات الحيوية لعلاجها

مسبقًا، أو يؤول بي الأمر لرفض الإطعام القسري، وفي هذه الحالة سوف أتضور جوعًا حتى الموت. كل يوم، يتطلب جسدي وقودًا أقل فأقل، على الرغم من أنني ما زلتُ أستمتع بالطعام، إلا أنني آكل مثل طائر، وهو ما يثير الأسى لدى شِن، فلطالما كان هو طاهي العائلة.

لقد كان يطعمني منذ أول يوم التقينا فيه. كل ما أعرفه عن الطعام الياباني يعود إليه الفضل فيه. والآن هذه متعة أخرى تختفي، ولربما كانت الأعظم. أنا لا أعرف كم يستغرق المرء من الوقت ليموت جوعًا، أو ما إن كان ذلك يتسبب في الألم، لكني أخشى ذلك، تمامًا كما أخشى أن يشاهدني ولداي وأنا أرحل هكذا. لأن هذا سيكون ما يتذكرانه، أمهما التي غدت محض كيس من العظام. ولا أريد مجرد التفكير بما سيفعله ذلك بشِن.

وطوال هذا الوقت، يقدم دوائي الصيني خيارًا آخر للرحيل. أنا ممتنة لامتلاكه، فهو يساعدني على الشعور بأن استقلاليتي لا تزال قائمة، وقد تكون لديّ القدرة على تحديد مصيري، حتى لو لم أستخدم الدواء مطلقًا، فسيظل يعمل على إبعاد الشعور بالعجز المطلق الذي يهدد في كثير من الأحيان بأن يطغى عليّ.

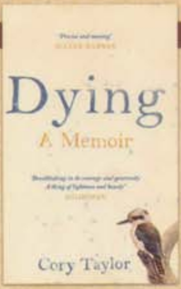
لقد ترددتْ على سمعي كثيرًا عبارة أن الموت في العصر الحديث يعني الموت أكثر، والموت على فترات زمنية أطول، وتحمل مزيد من انعدام اليقين، معرضين أنفسنا وأسرنا لمزيد من خيبات الأمل واليأس. ومثلما أننا قادرون على العيش لفترة أطول، فنحن محكومون بأن نموت على مدى زمني أطول. في هذه الحالة، لا ينبغي أن يكون مفاجئًا أن يبحث بعضنا عن الوسائل لإنهاء المحنة بصورة تحفظ كرامتنا، في الوقت الذي لا تزال لدينا القدرة على البت في الأمور بأنفسنا. أين الجريمة في ذلك؟ وداع ملؤه الحزن، فرصة لتقبيل وجه كل حبيب للمرة الأخيرة قبل هبوط النوم، وتراجع الألم، وتلاشي الرهبة، وهزيمة الموت للموت نفسه.

وها قد وصلت إلى حافة الكلمات الآن، إلى المكان الذي تتعثر فيه وينتابها التوتر في مواجهة حتمية الموت المرعبة. السبب الذي جعلني دائمًا معجبة بالأفلام هو أنها تُعنى بالإظهار لا الإخبار. لو قُدّر لي كتابة مشهد موتي لفيلمٍ ما لكانت لحظاتي الأخيرة شيئًا يشبه هذا. مونتاج. لقطات لفتاة مع كلب في ضوء الشمس الخافت بتصوير مهزوز ورديء، سيارة تسرع في طريق مغبر، الفتاة نفسها على شاطئ يحوي أشجار النخيل، ذراعها

معقود بذراع أمها في منطقة نائية، وهما تعبران مدرجًا في أحد المطارات وثمة طائرة فضيـة اللون تلوح في المشـهد. الطائرة تقلع. ثمة طائر كوكابورا مستقر على غصن شجرة وهو يضحك. ثمة سقنقور ينسل خلسة بعيدًا دون أن يلحظه أحد.

الصورة تبهت حتى تتلاشى.

* * *



في معنى أن نموت

لست أدري أين كان من الممكن أن أكون لو لم يكن بإمكاني القيام بهذا العمل الغريب. لقد أنقذ حياتي مرات عديدة على مر السنين، وما زال يفعل ذلك الآن. لوهلة من الزمن جسدي يتوجه نحو الكارثة، وعقلي في مكان آخر، متركزًا على هذه المهمة المصيرية الأخرى، وهي أن أقول لكم شيئًا ذا مغزى قبل أن أرحل. لأن سعادتي لا تُضاهى حين أكتب، أو أفكر في الكتابة، أو أنظر إلى العالم بوصفي كاتبة، وقد كان الأمر كذلك منذ البداية.

هذا هو سبب إقدامي على كتابة هذا الكتاب. الأشياء ليست كما ينبغي أن تكون. بالنسبة لكثيرين منا، أصبح الموت ذلك الشيء الذي لا يُذكر، والصمت المتوحش. ولكن هذا لا يمد المحتضرين بأي عون، أولئك الذين ربما يعانون من الوحدة الآن أكثر من أي وقت مضى.على الأقل هذا هو ما أحس به.

ISBN 978-603-03-6915-7
9 786030 369157

أدب
ADAB
إثراء
ithra